

د. عبد الله محمد علي تلمساني

بين الوعي والأوهام

جِزَاك عَرَبِي عَلَى مُعَادَلَةِ التَّوَاؤُنِ

الدار المصرية اللبنانية

بين الوعي والأوهام

جَزَاك عَرَبِي عَلَى مُعَادَلَةِ التَّوَاؤُنِ

بين الوعي والأوهام: حراك عربي على مُعادلة التوازن/

د. عبد الله محمد علي تلمساني. - ط 1. - القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2023.
144 ص؛ 21 سم.

تدمك: 7 - 416 - 795 - 977 - 978

1- الوعي الاجتماعي.

2- المجتمع العربي.

أ- العنوان 301,242

رقم الإيداع: 2023/ 14191

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 + 202

فاكس: 23909618 + 202 - ص. ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق النشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى: أغسطس 2023م

تصميم الغلاف الفنان: أحمد الصباغ

تعبير الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع حقوق النشر محفوظة للمؤلف، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا

المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه

أو استرجاعه أو إتاحتته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

د. عبد الله محمد علي تلمساني

بين الوعي والأوهام

جِزَاك عَرَبِي عَلَى مُعَادَلَةِ التَّوَازُنِ

الدار المصرية اللبنانية

تقديم

خلال بحثي عن سُبل تطوير النفس والمجتمع، شَغَلَنِي موضوع التوصل إلى معيار يُحدّد مواقع مُثَلَى ❶❷، يُمكن من خلال الوصول إليها إحراز تقدم في حياتنا، كأفراد ومجتمعات. ولقد وَجَدْتُ في ❶❷ التوازن ❶❷ قانونًا كونيًّا، يوفر معيارًا يُمكن من خلاله تحقيق تقدم في مختلف المجالات، الحياتية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية والأخلاقية(1).

وتم تطبيق هذا القانون في كتاب ❶❷ "طريق التوازن" ❶❷؛ كمدخل نظري وعملي لتحقيق مزيد من "الرِّضا والتميز" على المستوى الشخصي، والاجتماعي، والمهني(2).

وفي حين لم يتناول كتاب "طريق التوازن" قضايا أوسع ترتبط بتنمية مجتمعاتنا العربية والنهوض بها، فإن البحث عن مواضع الخلل في "معادلة التوازن" بمجتمعاتنا العربية قد شَغَلَنِي منذ ذلك الحين، الأمر الذي قادني إلى النظر بشكل أعمق في هذا الموضوع. ولقد كان مما شَجَّعَنِي على نشر كتاب

"بين الوَعْي والأوهام" ❶❷ الآن، ما ألاحظه من ظهور بوادر ❶❷ ووعي جديد ❶❷ لدى بعض مجتمعاتنا العربية. وتتمثل هذه الظاهرة في توجُّه هذه المجتمعات نحو "حالة من التوازن" ❶❷، تُبعِدنا عنها أوهام ومظاهر مجتمعية وموروثات تاريخية ومؤثرات سياسية، تقف أمام فُرص تقدُّم عالمنا العربي.

ونتج عن هذا "الوعي" تركيز بعض الدول العربية على التنمية وتطوير مجتمعاتها كسبيل أمثل للترقي، ومن ثمَّ ظهور نتائج إيجابية، تُشير إلى تقدُّم هذه الدول على مؤشرات تطوُّر عالمية. ليس ذلك فحسب، بل إن هناك عددًا من الدلائل والفُرص التي تُؤكد على أن العالم العربي يقف أمام لحظة تاريخية فارقة؛ حيث يمكن أن تُؤدِّي الاستفادة من الفُرص إلى دخول بعض الدول العربية، بالرغم من التحديات المحيطة بها، إلى نادي الدول المتقدمة.

أما الحافز الآخر لنشر هذا الكتاب، فيرتبط بوجود ❶❷ فجوة ثقافية وفكرية بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه ❶❷. حيث تحد هذه الفجوة من مدى انتماء الجيل الجديد، الثقافي والفكري،

لمجتمعاته. هذا الانتماء الهام لِدَعْم تطوُّر هذه المجتمعات، التي يُمثِّل الشباب قُرابة نصف عدد سكانها وكامل مستقبلها.

وتأتي أهمية النظر في موضوع هذه الفجوة بشكل خاص، من كونها تُمثِّل مظهرًا من مظاهر تحدُّ تاريخي يواجه فُرص تقدم عالِمننا العربي، يتمحور حول الوصول إلى "موقع متوازن" بين الأفكار والطُّروحات العالمية الحديثة من جهة، وثقافة وتُراث العالم العربي من الجهة الأخرى. ولقد شَغَلت هذ القضية، مُمَثَّلة في جدلية "الأصالة" و"المُعاصرة"، عمالقة الفكر العربي لعقود من الزمن.

ويبحث هذا الكتاب في المواضيع أعلاه من خلال منظورَيْن، الأول: تاريخي؛ يَسْتلهم دروسًا هامة من تجارب المجتمعات العربية والغربية (وغيرها) خلال فترات نُمو وانحسار حضارتها، والثاني: تحليلي؛ يتناول بعض الظواهر المؤثِّرة على فُرص تقدمنا، وذلك بَعَرَض الوصول إلى مدخل يدعم توفير "بيئة" و"توجُّه ذهني" مُحَفِّزَيْن لتطوير مجتمعاتنا⁽³⁾.

ويتم عرض نتائج دراسة هذه المواضيع في خمسة أبواب. نبدأ في هذا العرض بالجزء

وننتقل من خلاله إلى الكل. لذا، يتناول الباب الأول بعض التحديات التي ترتبط بالفجوة الفكرية والثقافية بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه. ويتم في ذلك التطرُّق إلى: ملامح من خطاب مجتمعاتنا نحو الجيل الجديد؛ وقوى جَدْب وطُرْد يواجهها هذا الجيل؛ ومثال لطبيعة العلاقة بين الجيل العربي الجديد والذي سَبَقه.

ويتناول الباب الثاني بعض جوانب تجسير الفجوة بين الجيل الجديد ومجتمعه. وتشمل هذه الجوانب: تغيير نظرتنا إلى الجيل الجديد؛ والحد من المظاهر التي تُتفَر هذا الجيل من مجتمعاته. هذا إضافة إلى فتح المجال أمام طُّروحات حديثة، بأسلوب غير تقليدي، يستجيب لتحديات فكرية تواجه هذا الجيل، ويُظهِر جوانب خاصة من ثقافتنا. وفي ذلك يتم البدء من "البدائية"، بتقديم منظور غير تقليدي "للكون" ولقوى "فوق طبيعية" من حولنا.

بتناول البابين: الأول والثاني لموضوع الفجوة بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه، يتم الانتقال إلى التحديات التي يواجهها العالم العربي بشكل عام. ويبدأ الباب الثالث في ذلك بتقديم إطار نظري؛ يُظهِر بواعث أشمل خلف هذه الفجوة، ومظاهر ارتباطها بتحديات أكبر تقف أمام

فُرص تقدم دول عالمنا العربي. ويتناول الباب الرابع هذه "التحديات".

أخيراً، يتم في الباب الخامس التطرُّق إلى "مُمكِّنات مُتاحة لتحقيق تقدم في العالم العربي"، تتمثَّل في: بؤادر ظهور "وعي عربي جديد" لدى بعض مجتمعاتنا العربية؛ إضافة إلى ظروف تاريخية وتنموية وسياسية وتقنية مُحفِّزة للتقدم. ويتم بنهاية هذا الباب تقديم خطوات مقترحة للاستجابة للتحديات الواردة في الباب الرابع والاستفادة من المُمكِّنات المُتاحة لتحقيق التقدم؛ وذلك بهدف إحداث قفزة حضارية بدول عالمنا العربي.

ولقد تم إيراد "مساحات للتأمل" في نهاية أبواب هذا الكتاب، يتم من خلالها تقديم "تساؤلات" ترتبط بما تم التطرق إليه في كلٍّ من هذه الأبواب. وقد تُمثِّل هذه التساؤلات فُرصاً لمزيد من البحوث من قِبَل المتخصصين، أو مواد لحلقات حوار وورش عمل عن جوانب من القضايا التي تم تناولها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب يستهدف القارئ العربي بشكلٍ عام. ويشمل ذلك "الجيل الجديد والذي سبقه"، والذين يحتاج كلُّ منهما الآخر لتحقيق التطور المنشود.

ولقد تم في سبيل إيصال الأفكار إلى القارئ العربي بشكلٍ عام، تفادي السرد أو الإسهاب في التنظير، إلا فيما هو ضروري؛ وذلك لتقديم عرض "متسلسل ومُبسَّط ومُختصر"، ما أمكن⁽⁴⁾.

كما لم يُقصد من هذا الكتاب أن يكون كتاباً شاملاً عن جميع التحديات التي تواجه مجتمعاتنا العربية، ولا ينبغي له؛ ذلك أنه يهدف إلى تسليط بعض الضوء على جوانب من مرحلة التطور التي يمر بها عالمنا العربي حالياً.

وتحريراً للموضوعية، وللابتعاد ما أمكن عن دواعي الخلافات السياسية التي كانت أيضاً من مسببات تخلفنا الحضاري، لن يتطرَّق هذا الكتاب إلى أسماء دول أو قيادات سياسية عربية بعينها أو أحزاب أو أشخاص، إلا عند الضرورة، وللتوضيح، وضمن هوامش الصفحات.

أخيراً وليس آخراً، أتقدّم بوافر الشكر والعرفان لمن ساعدوني بإبداء مرئياتهم على مسودات مادة هذا الكتاب وطروحاته. وهم كُثر⁽⁵⁾.

راجياً أن أكون قد وُفِّت فيما كتبت، وآملاً أن يأتي من هو خيرٌ مني؛ ليُطوِّر هذه الطروحات، ويُضيف إليها.

المؤلف

2022

- 1() سنتطرق في الباب الثالث من هذا الكتاب إلى "قانون التوازن الكوني" بشكل مُفصّل.
- 2() د. عبد الله محمد علي تلمساني، "طريق التوازن: نحو مزيدٍ من الرّضا والتميز"، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومكتبة جريب، الطبعة الثالثة، 2017.
- 3() ويشمل هذا المنظور التحليلي، استخدام "نموذج التحليل الاستراتيجي الرباعي"، كإطار عام لدراسة إمكانيّات تحقيق تَقَدُّم بدول عربية وتحديد خُطوات عملية لتحقيق ذلك.
- 4() مَنَّلت عملية "الموازنة" بين تقديم التفصيل والتأصيل المعرفي الذي يَطْلُبُه القارئ المتخصص من جهة، وعدم الإطالة أو الإثقال على القارئ غير المتخصص من الجهة الأخرى، تحديًا خاصًا عند إعداد مادة هذا الكتاب. راجيًا أن أكون قد حَقَّقْتُ أكبر قدر ممكن من التوازن في هذا الصدد. وأمل أن يُلقِي المتخصصون مَزِيدًا من الضوء على المواضيع التي يَرَوْن أهمية تقديم مزيد من البحث فيها، وبما يخدم أكبر شريحة من القُرّاء بمجتمعنا العربي.
- 5() تَمَّت الاستتارة بِمَرئِيّات العَشْرَات من مختلف الشرائح العُمرية والثقافية ذات العلاقة بمواضيع هذا الكتاب.

الباب الأول

تحديات يواجهها الجيل العربي الجديد

أ - سمات خطاب مجتمعاتنا نحو الجيل الجديد.

ب - قوى جَذْب وطرْد يواجهها شبابنا.

ج - بين الجيل الجديد والذي سَبَقَه.

مساحات للتأمل

يواجه أبناء وبنات الجيل العربي الجديد تحديات من حيث الموازنة بين طُرْح الفكر المعاصر الذي يتسم بالانفتاح والابتكار والتجديد من جهة، وخطاب بعض مجتمعاتنا التقليدي من الجهة الأخرى.

ويؤدي عدم التوازن بين هذين العنصرين إلى حدوث فجوة بين هذا الجيل والذي سَبَقَه ومجتمعاته بشكل عام، تجد من انتمائه الفكري والثقافي لهذه المجتمعات.

لنتناول هذه الظاهرة، يتم في الأقسام التالية، التطرُّق إلى: ملامح من سمات خطاب بعض مجتمعاتنا نحو الجيل الجديد⁽¹⁾، التي تزيد من حدّة هذه الفجوة؛ وقوى جَذْب وطرْد يواجهها هذا الجيل؛ ومثال لطبيعة العلاقة بين الجيل الجديد والذي سَبَقَه. وفيما يلي، تناول لهذه المواضيع.

أ - سمات خطاب مجتمعاتنا نحو الجيل الجديد

يَغْلُب على خطاب بعض مجتمعاتنا العربية للجيل الجديد، بمستويات تختلف من دولة إلى أخرى، الأسلوب التقليدي، المُكْرَّر، والوصائي، غير المحفِّز على التفكير والإبداع الضروريين للتطوُّر⁽²⁾.

ويزيد ذلك من سعة الهوة بين ثقافتنا ومعتقداتنا الأصيلة من جهة، والفكر المعاصر الذي يتعامل معه أبناء وبنات الجيل الجديد بشكل يومي من الجهة الأخرى⁽³⁾، الأمر الذي يجد من إمكانية انفتاح هذا الجيل على ثقافة وقيم مجتمعه، ناهيك عن تفهمها.

إضافة إلى ذلك، فإن هذا الخطاب لا يَحْفَلُ في كثير من الأحيان بالاطلاع على طُرُوحات حديثة ترتبط بالثقافات العالمية المعاصرة، ويعتبر أنها تتنافى بشكل عام مع مبادئنا الاجتماعية والثقافية⁽⁴⁾. ويحدث ذلك بمستويات مختلفة في عالمنا العربي.

وتمثّل توجّهات خطاب المجتمع، إضافة إلى أمور أخرى يتم تناولها لاحقاً، عبئاً على جيل الشباب، من حيث إنها تُرسِّخ لديهم فكرة انغلاق مجتمعاتنا، "وتخلّفها" عن الركب الحضاري والثقافي العالمي الحديث.

ب - قوَى جَذْبٍ وطرْدٍ يواجهها شبابنا

يمكن تمييز أربعة نماذج من أبناء وبنات الجيل العربي الجديد من حيث مدى الموازنة بين قوَى جذب وطرْدٍ من حولهم، وانعكاس ذلك على توجّهاتهم الثقافية والفكرية. ولا يُقصد من هذا التصنيف "الوصاية" أو "الإقصاء"، وإنما الإيضاح. وتشمل هذه الفئات ما يلي:

1 - الفئة التقليدية أو المُحافظة

وعادةً ما لم تُخض هذه الفئة تجربة العيش في بيئات غربية أو تطلّع على جوانب من الفكر الحديث. وقد تجد هذه الفئة، المحافظة، نفسها مندفعة بقوة نحو التمسُّك بثقافة وقيم مجتمعتها، وهي ظاهرة حميدة في حد ذاتها.

بيد أنه لدى هذه الفئة، نتيجة لتوجُّهها التقليدي أو للضغط من البيئة المحيطة بها، قوة طَرْدٍ ضد مظاهر التعلُّم والتطوُّر التي يشهدها العالم الحديث. وتؤدي قوة الطرد هذه إلى دفع هذه الفئة بعيداً عن الوضع "المتوازن"، كما سيتم إيضاحه لاحقاً.

2 - الفئة "الحداثيّة"

وعادةً ما تكون هذه الفئة قد عاشت في بيئة غير محافظة، أو حصلت على جرعات أكبر من الثقافة أو التعليم الغربي. وقد تجد هذه الفئة نفسها أمام عوامل جذب قوية للفكر أو المظهر الغربي الحديث. هذا إضافةً إلى قوّة طردٍ ضد مظاهر تراث مجتمعاتها.

ويأتي ذلك إما نتيجة لتلقّي هذه الفئة للكثير من النصح والوصاية الفكرية المجتمعية، أو كَرْدَةٍ فعل لما تراه من مظاهر "التخلّف" بهذه المجتمعات مقارنةً بمستوى التطور في المجتمعات المتقدمة.

وبالرغم من إمكانية إفادة هذه الفئة من العلوم والثقافات العالمية، إلا أنها قد تُدفع، نتيجة لهذه

القوى، بعيدًا عن ثقافة وقضايا مجتمعاتها.

وتتجَنَّب هذه الفئة، بشكل عام، المجاهرة بأفكار تخالف التوجُّه السائد لمجتمعها، تقاديًا للمواجهة، ومن ثم فإنها تنمأى في طرحها مع البيئة التي حولها، سواءً كانت بيئة "المحافظين" أو "المنفتحين" على الثقافات الأخرى.

وعادةً ما تكتفي هذه الفئة بانتظار "الفرصة" للانتقال إلى مجتمعات أكثر انفتاحًا وتقديرًا لأفكارها، أو لأسلوب حياتها، أو مظهرها الغربي الحديث، عاجلاً أم آجلاً⁽⁵⁾.

3- فئة لا تنتمي لأي من الفئتين أعلاه

هناك أيضًا فئة لا تنتمي لأي من الفئتين أعلاه، نظرًا لعدم تأثرها، لسبب أو لآخر، بقوى الجذب والطرْد التي تتعرض لها الفئتان السابقتان. وقد تكون هذه الفئة قريبة من الوضع "المتوازن" بين الأصالة والمعاصرة. إلا أنها أيضًا عرضة للتوجُّه مستقبلاً نحو أي من هذه الفئات، بعيدًا عن نقطة التوازن⁽⁶⁾.

4 - الفئة "المتوازنة"

أخيرًا، هناك الفئة التي هي على قدرٍ كافٍ من الاطلاع على العلوم والثقافات العالمية، ويتوافر لديها في نفس الوقت فهم وتقدير لثقافة وقيم مجتمعتها، ولا يوجد لديها تشوُّش بخصوص انتمائها لهذا المجتمع، أو تحرُّج من الدفاع عن قضاياها.

وتُمثِّل هذه الفئة "وَضْعًا متوازنًا" بين الأصالة والمعاصرة، يتطلَّب إيجاد البيئة الثقافية والمجتمعية الحاضنة له والمحفزة لدعم انتشاره؛ وذلك بهدف الاستفادة بشكل أكبر من ثقافة وفكر وطاقات أبناء وبنات جيل العالم العربي الجديد في تنمية مجتمعاته.

ج- بين الجيل الجديد والذي سبقه

يُمثِّل التوجُّه الفكري أحد أهم العناصر التي تتسبَّب في إحداث فجوة بين الجيل العربي الجديد والذي سبقه. ذلك أن مجتمعاتنا العربية من أكثر الشعوب محافظةً وتديُّنًا على مستوى العالم⁽⁷⁾، الأمر الذي يجعل أي مؤشرات على تبني الفرد لتوجُّه يختلف عن التوجُّه العام للمجتمع شخصًا مرفوضًا مجتمعيًا.

وعادةً ما يؤدي انفتاح الشباب على أفكار جديدة، أو الظهور بمظهر مختلف عما اعتاد عليه المجتمع، إلى استثارة حفيظة الأجيال التي سبقتهم، مما يساهم في إيجاد فجوة بين الأجيال.

وسيتّم فيما يلي إيراد نموذج، كحالة دراسية، تُلقِي بعض الضوء على طبيعة العلاقة بين الجيل العربي الجديد والجيل الذي سبقه ومجتمعه بشكل عام. وينطبق هذا المثال بصورة عامة على حالة العديد من الشباب من أبناء وبنات العالم العربي والجيل الذي سبقهم، بأشكال ومستويات تختلف حسب الظروف المحيطة بهم.

اتصل بي صديق، راغبًا مني بمقابلة شخص عزيز لديه، يطلب النصح في أسلوب التعامل مع ابنه الذي يرى أن لديه "تأثرًا كبيرًا وانبهارًا بالثقافة الغربية"، الأمر الذي أدى إلى تخوّفه على منظور ابنه الفكري.

وخلال حديثي مع والد الشاب، لم يُفاجئني منظوره (الذي سبق وتوقّعت أن يكون قد رسّمه لفكر وحياة ومظهر ابنه، بناءً على تجربته الشخصية السابقة). لذا، قُمتُ بالتأكيد على قضية اختلاف طبيعة زمن الجيل الجديد عن جيلنا، الأمر الذي يتطلّب تغيير أسلوبنا في التعامل معه، وحتى التأقلم مع بعض التغيّرات التي طرأت على العالم خلال العقود القليلة الماضية.

وبالرغم مما بدا على الأب من تخوّف تجاه "عدم تضامني" مع موقفه، وإمكانية تأثير ذلك بشكل "سلبّي" إضافي على موقف ابنه، إلا أنه طَلَبَ مني مقابلة ابنه. وقد يكون ذلك من قبيل ثقته في رأي صديقه، أو أنه لم يجد هناك ما يخسره. كان ذلك بعد أن سألتني عما إذا كنت أرى نفسي "حدائثيًا" أم "إسلاميًا".

ولقد أجبته عن سؤاله بأنني، أولاً: لا أميل إلى استخدام تسميات "تعميمية" في وصف الآخرين، والتي كثيراً ما استُخدمت لتصنيف أفراد المجتمع، بغرض الوصاية أو الإقصاء. وثانياً، إن الإسلام لا يتعارض مع مفهوم الحدائثة، من حيث مُجارات التطور العلمي والثقافي العالمي، وأن وَضَعنا للإسلام في موقع "الضد" للتعلّم والثقافة والمُعاصرة يَضُر في الحقيقة بالإسلام، ويُسهم في تخلفنا الحضاري.

وقد يعود توجّهي هذا إلى نشأتي خلال فترة الستينيات وأوائل السبعينيات في بيئة عربية اتسمت بالتسامح والرفق والتبني الطبيعي للقيم الدينية السمحة، دون تكلف أو خوف أو تزلف. كما أنني عشت على مدى سنوات في أكثر من دولة عربية، عاصرتُ خلالها أيضاً فترات ما بعد منتصف السبعينيات التي ساد فيها التشدد الديني، ثم ما سُمّي "بالربيع العربي" وما تبعه من تنامي لظاهرة "الإسلام السياسي"، ومن ثمّ ما ظهر مؤخراً مما يبدو أنه "وعي جديد" لدى بعض المجتمعات العربية.

أما الجانب الآخر من تجربتي، فقد توافر لي من خلال العيش في الغرب لفترات على مدى أكثر من ثلاثة عقود، استفدت منها علمياً وثقافياً. ولقد تكوّنت لديّ من خلال العيش في دول عربية وغربية، معارف وقناعات عملتُ ما أمكن على الاستفادة منها. وقد تم دعم هذه التجربة من خلال تطوير مفاهيم كتاب "طريق التوازن" الذي نشرته أولاً باللغة الإنجليزية، في الولايات المتحدة الأمريكية⁽⁸⁾، نزولاً عند رغبة بعض أصدقائي الأمريكيين، الذين رأوا في أفكاره مزيجاً من الفكر الغربي الحديث وقيمنا الأصيلة التي قد تكون مفيدة للمجتمع الغربي.

وعوّداً إلى موضوع صديقنا الذي يرغب في الاطمئنان على ابنه، وعند مقابلة هذا الابن، وجدّنتي أمام شاب على قدر من التهذيب، أنهى مؤخرًا دراسته في الخارج في مجال العلوم البيئية. وبطبيعة الحال غلبَ على توجُّهه الاهتمام بقضايا تغيُّر المناخ والاستدامة. هذا إضافة إلى اهتمامه بالسلم الاجتماعي والمواضيع التي ترتبط بالقيم الإنسانية "الحضارية"، مثل الحرية والعدالة والرحمة.

وبهدف توفير مجال أوسع للتوافق، الضروري للتواصل بين الجيلين، لم أبدِ أي انتباه خاص لمظهره "المختلف نسبيًا"، أو لاستخدامه اللغة الإنجليزية كلغة أساسية للتعبير عن أفكاره.

كما لم أجادله فيما أشار إليه من مظاهر "التخلف" في مجتمعاتنا. ولم أستخدم معه في ذلك مقولة: "إننا كُنّا يوماً على مستوى حضاري مُتقدِّم تعلَّم منه العالم"؛ وهي مقولة أصبحت تُمثِّل "أسطوانة مشروخة" سئم منها أبناء وبنات الجيل العربي الجديد. ولم أستخدم معه أيضاً مقولة: "إن تخلفنا نتج عن ابتعادنا عن الدين"؛ حيث إنها كثيراً ما استُخدمت بشكل يُكرِّس عدم الموازنة بين الدين والدنيا⁽²⁾.

وفي الحقيقة، فإنني لم يكن لديّ في حينه منظوراً متكاملًا لطرحٍ مُقنِعٍ يمكن تقديمه للتعامل مع الأزمة الحضارية التي تعاني منها مجتمعاتنا العربية. وأمل أن يكون فيما وردَ في هذا الكتاب مدخلٌ يدعم هذا التوجُّه.

وبعد نقاش لم يتخلَّه تنازع رئيس في الآراء، تطرقتُ إلى التأثير السلبي لتصرفات بعض المسلمين على سُمعة الإسلام. ولقد سَعِدْتُ بتأكيد هذا الشاب على هذه الفكرة. ذلك أن البعض يربط "الإسلام" بالعديد من المظاهر السلبية التي يتبناها بعض المسلمين.

ولقد كان مما نتج عن التبادل الحر للآراء، وتحاشي الأسلوب الوصائي، والحد من الوعظ والترهيب⁽¹⁰⁾، والتركيز على جوانب التوافق بيننا، والإنصات، أن قام هذا الشاب بالتطرُّق إلى

بعض التحديات التي يواجهها جيله، وطموحاتهم، ومرئياته بخصوص بعض القضايا، بأريحية وطلاقة.

وقد أتاح ذلك لي فرصة التطرق إلى العديد من المواضيع، كان منها موضوع على قدر كبير من الأهمية، يرتبط "بوهم المعرفة"⁽¹¹⁾؛ والذي يتمثل في ثقة البعض في علمه وقدراته للمدى الذي يظن أنه "قد علم"⁽¹²⁾.

وتؤدي هذه الثقة، ودوافع أخرى يتم التطرق إليها في الباب الثالث، إلى [❗]توجه غير متوازن [❗](13) يقود إلى إصدار أحكام متسرعة على الأعراف المجتمعية والمنظومات القيمية، وصولاً إلى بعض المعتقدات الأساسية.

وفي هذا الصدد، قُمتُ، مما توفّر لي من فهم في حينه، بالإشارة إلى أن محاولتنا "كبشر" إصدار أحكام شمولية على الكون، اعتماداً، فقط، على قدراتنا العقلية، تُشبه محاولة "طفل" قياس سعة المحيطات باستخدام "مسطرة" طولها 30 سنتيمتراً، الأمر الذي يتطلب التريث قبل إصدار، أو قبول، ادعاءات بمعرفة شمولية لهذا الكون. ناهيك عن خالفه⁽¹⁴⁾.

ولقد أثار هذا الطرح اهتمام هذا الشاب. وكان مما أسعدني أن توصلنا بعد مزيد من النقاش إلى توافق على هذا الطرح وطروحات أخرى.

كما أسعدني التعرف على عدد من الأفكار التي طرحتها هذا الشاب، والتي وفّرت لي منظوراً جديداً عن بعض التطورات التي طرأت على العالم والمجتمع، والتي شملت قضايا لم تكن ضمن إطار رؤيتي في حينه.

بنهاية نقاشنا، وقبل أن يودّعني، أشار هذا الشاب، بشيء من الأسى والشفقة، إلى محبته لوالده وانشغاله عليه؛ من حيث إن والده يظن خاطئاً أنه قد أهدى. وقال لي: "أنا فقط أبحث عن الطريق".
ويُمثّل هذا المستوى من الطرح والنقاش أهمية خاصة في تجسير الفجوة النفسية والثقافية بين الأجيال، ودعم سبل التعاون فيما بينها لخدمة مجتمعاتها.

وسيتّم في الباب الثاني من هذا الكتاب تناول المزيد من سبل تجسير الفجوة بين الجيل الجديد ومجتمعه، والتي تشمل فتح المجال أمام طروحات حديثة تستجيب لبعض التحديات الفكرية التي تواجه الشباب وتُظهر بعض السمات الخاصة في ثقافتنا.

- كيف ينظر الجيل العربي الجديد إلى نفسه؟
- كيف يرى هذا الجيل مجتمعه؟ وماذا يريد من هذا المجتمع؟
- ما الذي يراه هذا الجيل في الثقافة الغربية الحديثة، ولا يجده في ثقافة مجتمعه؟
- ما عناصر الجذب التي يحتاجها هذا الجيل، بمختلف فئاته، لتمكينه من الموازنة بين انتمائه لمجتمعه والانفتاح على العلوم والثقافات الأخرى؟
- كيف ينظر العالم العربي إلى الجيل الجديد؟ وكيف تؤثر هذه النظرة على علاقته بهذا الجيل؟
- ما هي المظاهر المجتمعية التي تتفرد بها الجيل الجديد من مجتمعاته؟ وكيف يمكن الحد منها؟
- كيف يمكن تجسير الفجوة بين هذا الجيل ومجتمعه؟

1) ويُقصد بذلك، الفئة العمرية التي تقع بين 12 و34 عامًا. ولقد تم تحديد أعمار هذه الفئة بناءً على تعريفات إحصائية، وملاحظات الفئات العمرية والثقافية التي تمت الاستئارة بمرئياتها.

2) د. عبد المعطي سويد، "أخطاء الفكر التقليدي في معاينة العصر"، صحيفة ثقافات، 2015.

3) يوسف بدّور، "الشباب ومدى التأثير بالثقافة الغربية"، صحيفة العروبة، 2019.

4) سيتم تناول ظاهرة "الانغلاق الفكري" بشكل أكثر تفصيلاً في البابين الثالث والرابع.

5) أشار عدد مِمَّنْ تَمَّتْ الاستئارة بأرائهم من هذه الفئة، إلى أنهم يرون أنفسهم، في نهاية الأمر، يعيشون في مجتمعات غربية حديثة.

6) يرى البعض من هذه الفئة، تزايد تأثير الانفتاح الثقافي العالمي، مع الزمن، على جميع فئات الشباب، نتيجة لتوفر قنوات التواصل والمعلومات الحديثة، مما يؤدي إلى انحسار نسبي في أعداد فئتهم وفئة المحافظين من جهة، وتزايد أعداد المتأثرين بالثقافات الغربية من الجهة الأخرى.

7) إحصائية معهد "غالوب" عن مستوى المحافظة والتدين في دول العالم، 2015.

8) Abdullah Telmesani, PhD, "THE BALANCED WAY: The Path to Excellence and Contentment", Createspace, USA, 2011.

9) أكد الإسلام على أهمية الموازنة بين الدين والدنيا، حيث قال (عز وجل): (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ^ط وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ^ط وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ^ط وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ^ط إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)، سورة القصص، آية: 77.

10) هناك الكثير في مجتمعاتنا ممن لديهم رغبة جامحة في الوَعظ والترهيب. وفي حين يحضُّ الدين على النصيحة، تتم في كثير من الأحيان المبالغة في تقديمها. وكثيراً ما تأتي النصيحة من

أفراد غير مُدركين لطبيعة العصر، أو بناءً على معلومات غير دقيقة، الأمر الذي يجعل النصح في كثير من الأحيان أكثر ضررًا من عدمه. ولقد فاقمت وسائل التواصل الاجتماعي وقنوات المعلومات الأخرى من هذه الظاهرة؛ حيث يَغْلُب عليها أيضًا أسلوب الوعظ والترهيب.

11() ستيفان سلومان، "وَهْم المعرفة: لماذا لا يمكننا أن نفكر وحدنا؟"، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، 2017.

12() وفي ذلك يقول ابن المبارك: "لا يزال المرء عالمًا ما طَلَب العِلْم، فإذا ظَنَّ أنه قد عِلِمَ فقد جَهِل".

13() سيتم تناول مفهوم "التوجُّه المتوازن" والمؤثرات عليه بشكل مفصل في الباب الثالث.

14() سيتم إلقاء بعض الضوء على هذا الموضوع في الباب الثالث.

الباب الثاني

تجسير الفجوة بين الجيل الجديد ومجتمعه

أ - تغيير نظرنا إلى الجيل الجديد.

ب - الحد من مظاهر تُتفَرَّ الشباب من مجتمعاته.

ج - فتح المجال أمام طُروحات حديثة تحد من سعة الفجوة.

مساحات للتأمل

في ضوء استعراض سمات خطاب بعض مجتمعاتنا للجيل الجديد، وقوى الجذب والطرْد التي يواجهها هذا الجيل، تظهر أهمية الاستجابة لهذه الظاهرة بشكلٍ يحد من الفجوة بين الجيل الجديد والذي سبقه وثقافة مجتمعه بشكل عام.

وسيتّم في سبيل ذلك، تناول ثلاثة جوانب من سُبُل تجسير الفجوة بين الجيل الجديد والذي سبقه ومجتمعه، نجدها ذات أهمية في هذا الصدد. وتشمل هذه الجوانب: تغيير نظرنا للجيل الجديد؛ والحد من مظاهر تُتفَرَّ هذا الجيل من مجتمعاته؛ وفتح المجال أمام طُروحات حديثة، غير تقليدية أو وصائية، تستجيب لتحديات فكرية تواجه هذا الجيل، وتُظهِر جوانب خاصة من ثقافتنا. وفيما يلي تناول لهذه المواضيع.

أ - تغيير نظرنا للجيل الجديد

تقف نظرة بعض مجتمعاتنا إلى الجيل الجديد، حاجزًا أمام التواصل بين هذا الجيل والذي سبقه ومجتمعه بشكل عام. ويبدأ بناء هذا الحاجز من نظرة المجتمع للنشء من حيث إنهم محدودو خبرة ومعرفة بالحياة.

وترسّخ لهذه النظرة موروّثات تاريخية في بعض مجتمعاتنا، والتي منها إطلاق مُسمّى "جُهال" أو "ضعوف" على النشء، وغير ذلك من نُعوت تدل على الاستخفاف بعقولهم واهتماماتهم، وعلى

قلّة حيلتهم⁽¹⁾. ويمتد هذا المفهوم في كثير من الأحيان إلى الشباب بشكل عام، بمستويات مختلفة في مجتمعاتنا.

وينتج عن ذلك تَبَنّي هذه المجتمعات لموقف "وصائي" نحو الجيل الجديد، على اعتبار أن علاقتها بهذا الجيل هي مجرد علاقة "تقويم وتصحيح مفاهيم"⁽²⁾.

وفي حين كانت طبيعة العصور السابقة، بطيئة التسارع، تتيح فرص بناء النشء لمعارفه وتجاربه بتوجيه ومتابعة مستمرة من الجيل الذي سبّقه، وبشكل يتيح إمكانية التواصل بين الأجيال، فإن ذلك لم يصبح القاعدة السائدة في عصرنا الحديث. ذلك أن بيئة العصر قد غيّرت من طبيعة العلاقة بين الأجيال⁽³⁾.

وفي ذلك نُشير إلى أن تسارع مستوى التغيير وفتح قنوات المعرفة وتبادل الخبرات، قد مكّن الجيل الجديد من الحصول على المعارف ونتائج التجارب المحلية والعالمية من مصادر أخرى منذ نعومة أظفاره، الأمر الذي لم يجعل من الممكن استمرار العلاقة التربوية الوثيقة بين الأجيال بالشكل الذي تعودت عليه "الأجيال السابقة".

كما أدّى عصر المعلومات الحديث إلى إيجاد واقع جديد غير مسبوق، جعل النقلة الرقمية التي نعيشها ليست مُجرّد "إضافة تقنية"، بل "عَنْبَة تَحَوُّل"⁽⁴⁾، تَنطَلَب اعتبارات خاصة عند التعامل مع الأجيال الجديدة.

وفي ذلك يقول الدكتور منصور الشمري، الأمين العام للمركز العالمي لمكافحة الفكر المتطرّف: "إن أي سياسة تأطيرية للشباب، تَزْعُم قُدْرَتَهَا على تدبير التواصل معهم انطلاقاً من الأطر المؤسساتية التقليدية، سيكون عليها أن تواجه فشلاً محتوماً، إذا لم تنتبه إلى خصوصيات ما يُمكن دعوته "بالجيل الرقمي الجديد"⁽⁵⁾.

من الجانب الآخر، أتاح تعدّد قنوات المعرفة وتبادل الخبرات الحديثة للجيل الجديد فُرصاً للمعرفة وتراكم الخبرات أكبر من الفُرص التي أُتيحَت للجيل الذي سبقه، وذلك للقدر الذي مكّن بعض أبناء وبنات الجيل الجديد من تجاوز مستوى معرفة الجيل الذي سبقهم بما يعادل ثقافة أجيال. هذا، ناهيك عن الاختلاف الجذري في الاهتمامات بين الجيل الجديد والذي سبقه.

وتُعَمِّق هذه الظواهر من الفجوة المعرفية والثقافية بين جيل الشباب والذي سبقه إلى المستوى الذي يؤدي إلى تكوّن "ثقافتين"، تقل بينها القواسم المشتركة بِشكّل مُتسارع.

ويزيد توجُّه بعض أفراد الجيل السابق "الوصائي"، وأسلوبه التقليدي في التعامل مع الجيل الجديد، من عمق الفجوة الثقافية والفكرية بين الجيلين، للمستوى الذي يُغلق مجال التواصل بينهما ويحد من فرص الاستفادة كل منهما من معارف وخبرات الآخر.

ويؤكد ما سبق أهمية التواصل مع الجيل الجديد بأسلوب غير تقليدي، حديث، على غرار الأسلوب الذي تم التطرُّق إلى بعض ملامحه في الحالة الدراسية التي أوردناها في الباب الأول.

ويتضمَّن التوجه العام لهذا الأسلوب: نبذ التوجُّه الوصائي نحو الجيل الجديد؛ وتقدير التحديات التي يواجهها، المرتبطة بعصر يختلف في طبيعته عن أي عصرٍ سَبَقَه؛ والتعرُّف على طُموحاته وتطلُّعاته؛ وعَدَم التعلُّج في إصدار أحكام نهائية عليه⁽⁵⁾؛ وفتح مجالات جديدة، وتحديد قضايا، يمكن أن يتم فيها التوافق بينه والجيل الذي سبقه ومجتمعه؛ والاعتراف بإمكانية التعلُّم منه، ناهيك عن الاستحضار الدائم لحقيقة أنه يُمثِّل حاليًّا أكثر من نصف مجتمعاتنا، وكامل مُستقبلها.

ويُمثِّل هذا التوجُّه، أو أشكال مماثلة له، بادرة تصالُّح مع الجيل الجديد، يُمكن أن تُشجِّعه على التواصل مع الجيل الذي سبقه، ومن ثمَّ توفير فرص تبادل الخبرات والثقافة والمعرفة بين الأجيال، بما يُفيد مجتمعاتنا.

وبطبيعة الحال، يجب أن يتَّبَع فَتْح قنوات التواصل مع الجيل الجديد خطوات عملية أخرى نحو تجسير الفجوة، يتم تناول أهمها في القسمين التاليين.

ب- الحد من مظاهر تُفَرِّق الشباب من مجتمعاته

تُعاني بعض مجتمعاتنا من عدد من الأوهام والمظاهر المجتمعية والموروثات التاريخية والمؤثرات السياسية التي تُؤدِّي إلى إيصال "رسائل سلبية" إلى أبناء وبنات الجيل الجديد، تُنمُّ عن تخلف هذه المجتمعات وعدم قدرتها على مُجاراة التطورات والثقافات الحديثة.

وتشمل هذه "الرسائل السلبية" التي توجَّهها بعض مجتمعاتنا إلى الجيل الجديد: انغلاق وتشدُّد هذه المجتمعات، مقارنةً بالمجتمعات المتقدمة؛ وعدم تناسق سلوكياتها مع بعض ما تدَّعيه من قيم؛ وأن ثقافتنا ومعتقداتنا ليست بالقوة الكافية لمجابهة الثقافات الأخرى؛ وعدم تماشي هذه الثقافة مع القيم "الحضارية" الحديثة؛ وأن مجتمعاتنا غير قادرة على الوصول إلى مستوى الإلتقان الذي تتَّسم به المجتمعات المتقدمة، وغير ذلك.

وتم تناول هذه الظواهر وغيرها في "الباب الرابع" من هذا الكتاب، عند التطرُّق إلى "التحديات

التي تقف أمام فرص تقدم مجتمعاتنا". وإضافةً إلى مساهمتها في إيجاد فجوة بين الجيل الجديد ومجتمعه، تؤدّي هذه الظواهر أيضًا إلى استمرار تخلف هذه المجتمعات.

ج- فتح المجال أمام طُروحات حديثة تحد من سعة الفجوة

إضافةً إلى تغيير نظرة المجتمع إلى الجيل الجديد، والحد من المظاهر التي تُتفرّغ من مجتمعاته، يتطلّب تجسير الفجوة بينه والجيل الذي سبقه، ومجتمعه بشكل عام، فتح المجال أمام طُروحات حديثة، غير تقليدية أو مُغلّقة أو وصائية، تستجيب لتحديات فكرية تواجه هذا الجيل، وتُظهر جوانب خاصة من ثقافتنا.

وفي هذا الصدد، نُشير إلى ما تطرّقنا إليه عند تناولنا للحالة الدراسية في الباب الأول، من أن التوجّه الفكري يُمثّل أحد أهم مسببات الفجوة بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه، وأن ذلك يرتبط "بحساسية" المجتمع تجاه أي مؤشّرات على تنبّي الفرد لِتوجّه فكري يختلف عن التوجّه العام للمجتمع.

من الجانب الآخر، تأتي بعض الأفكار الحديثة، التي قد تبدو "منطقية وجاذبة"، لتستجبتّ المشاعر والقيم "الإنسانية" و"التقدمية" لدى الشباب، من منطلق أنها تُقدّم لهم "بديلاً" يُحرّرهم من الارتباط فكرياً وثقافياً بمجتمعات تنبّس بالانغلاق الفكري، والتشدّد، والتعدّي على الحريات الفردية، وغير ذلك.

ويؤدّي توجّه بعض مجتمعاتنا، "الوصائي"، وأسلوبها التقليدي في التعامل مع جوانب الخلاف بينها والجيل الجديد؛ ليؤكد لهذا الجيل على ما تذهب إليه الطُروحات الحديثة، ويزيد من سعة الفجوة بينهم ومجتمعهم.

لذا، وفي سبيل تقديم أمثلة لخطاب غير تقليدي يستجيب لهذه الظاهرة، قُدّمت في ملاحق هذا الكتاب مواضيع ترتبط بقضايا ذات علاقة، وبتحديات فكرية تواجه الكثير من أبناء وبنات الجيل الجديد، وذلك على النحو التالي:

يتم في الملحق (1) من هذا الكتاب تقديم موضوع بعنوان "الكُون كما لا نراه"، يُشير إلى مدى قصور قدراتنا كبشر، عن الإحاطة بظواهر كونية أساسية، مثل مفاهيم "المكان" و"الزمان"، الأمر الذي يدعو إلى التريث، قبل إصدار، أو قبول ادعاءات بفهم سُمولي للكون، ناهيك عن خالقه.

وللدلالة على مدى قصور قدراتنا وغيرنا، على الإحاطة بالمفهوم الحقيقي **المكان** ، على سبيل المثال، نُشير إلى أننا كبشر نَنفَقُ بِشكْلِ شِبْهِ فِطْرِي على ثلاثية أبعاد **المكان** ، والتي نُشير إليها، بالطول (س)، والعرض (ص)، والارتفاع (ع).

وفي حين لا يُمكننا كبشر تخيُّل أيِّ بُعدٍ خلافاً لهذه الأبعاد الثلاثة، فإن هناك العديد من البحوث العلمية التي تُشير إلى أبعاد أخرى للمكان، بما في ذلك احتمال وجود "أكون متوازية" (Z)، الأمر الذي يتعدَّى حدود قدراتنا الحسية على تخيُّله كبشر.

وعلى غرار ذلك، نُشير في الملحق (1) أيضاً، إلى أننا كبشر، لا نستطيع فَهْم مفهوم

الزمن ، أو تخيُّله، إلا ضمن إطار "خطِّي" (Linear) بسيط، يتمثَّل في: الماضي، والحاضر، والمستقبل. لكن هذا الإطار لا يُمثِّل المفهوم الحقيقي للزمن.

وفي ذلك، تُؤكِّد البحوث العلمية الحديثة على عدم "خطِّية" الزمن، وعلى أن العالم يتكوَّن من كتلة عملاقة رباعية الأبعاد من "الزَّمكان"، لا يوجد داخلها ما يُمكن أن يُسمَّى "الآن". وتستنتج هذه الدراسات أن شعورنا "بالحاضر" هو فقط انعكاس لمكاننا الحالي في كتلة الكون (8).

ويُختتم هذا الموضوع بشهادات لبعض أعظم فلاسفة وعلماء العالم على مدى محدودية قدراتنا كبشر على استيعاب القوى التي تُحرِّك هذا الكون. وفي ذلك يُشَبِّه آينشتاين البشر بالطفل الذي دخل مكتبة مملوءة بكُتُب بلُغات عديدة، يَعْرِف هذا الطفل أن أحداً ما قد كتب ما فيها من كُتُب، لكنه لا يفهم اللُّغات التي كُتِبَتْ بها. ويُلَمِّح الطفل أيضاً أن هنالك نظاماً تم بموجبه ترتيب هذه الكتب، لكنه لا يعرف ما ذلك النظام.

ويقول آينشتاين في ذلك: " وفي رأيي، فإن هذا هو موقف، حتى الأذكى منا، إزاء إله هذا الكون. فنحن نرى كوناً على درجة عالية من النظام، تحكُّمه قوانين بالكاد نفهمها، وعقولنا ذات القدرة المحدودة لا تستوعب القوة الغامضة التي تُحرِّك الكواكب السماوية" (9).

من الجهة الأخرى، واستجابةً لبعض التحديات التي يواجهها الجيل الجديد، يتم في ملحق (2)

تناول تساؤلات أساسية وهامة عن مفاهيم **الرحمة** و **العدل** في هذا الكون، والتي تُورِّق الإجابة عنها الكثير من أبناء وبنات الجيل العربي الجديد.

كما يتم في ملحق (3) تقديم طَرْحٍ عن قوَى "فَوْق طبيعية" مُتاحة لنا، يُشير إلى مفاهيم خاصة في ثقافتنا، يمكن البناء عليها في تجسير الفجوة بين الجيل الجديد ومجتمعه.

بتناؤل البابين: الأول والثاني، لموضوع الفجوة بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه، يتم في الباب الثالث من هذا الكتاب تقديم "إطار نظري" (مُبَسَّط)، يُظهر بواعث أشمل خلف هذه الفجوة، ومظاهر ارتباطها بتحديات أكبر تقف أمام فرص تقدم العالم العربي.

مساحات للتأمل

• هل يُدرك المجتمع العربي أن الجيل الجديد يتطلّب أسلوبًا وطَرْحًا مُعاصرًا يَخْتَلِفُ عما أَلَفَهُ أي جيل سَبَقَهُ، وأن اتِّباع الأسلوب التقليدي مع الجيل الجديد يؤدي إلى نتائج عكسية؟

• كيف يُمكن للعالم العربي دعم سُبل التواصل مع الأجيال الجديدة بما يُقوِّي من مدى انتمائها ومساهمتها في تنمية مجتمعاتها؟

• كيف نوَفِّرُ لشعوبنا البيئة الثقافية التي لا تحد من قدرتها على التفكير الحُر، اللازم لإنتاج أفكار مُعاصرة أصيلة، تضاهي في قوَّتِها وجِدَّتِها الثقافات العالمية الأخرى؟

• انطلاقًا من أهمية عنصر التوازن، ما هي المؤثرات على "توجهنا المتوازن" وطبيعة ارتباطها بالتحديات التي يواجهها الجيل العربي الجديد والعالم العربي بشكل عام؟

1) "الولد ومرادفه في باقي اللهجات"، منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، 2012.

2) طارق أبو السعد، "بناء الأجيال .. هل نُدرك حقًا أن الزمن قد تغيَّر؟"، صحيفة "حفريات"، 2022.

3) د. مصطفى الفقي، "أجيال جديدة ومفاهيم مختلفة"، بوابة الأهرام، 2021.

4) د. منصور الشمري، "مؤسسات قديمة وهويّات رقمية جديدة"، جريدة الشرق الأوسط، 2021.

5) المرجع السابق.

6) سيتم في الباب التالي تناول هذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلاً.

7) "ما هي نظرية الأكوان المتوازية"، موقع سطور، 2020.

8) "ما هي اللبنة الكونية؟ من الزمان والمكان إلى الزمكان"، موقع ناسا بالعربي، 2017.

9) د. محمد باسل الطائي، من محاضرة بعنوان "مفهوم الإله عند أينشتاين"، بكلية العلوم، جامعة اليرموك، الأردن، 2019.

الباب الثالث

مؤثرات على "توجُّهنا المتوازن" كأفراد ومجتمعات

أ - الخلفية الثقافية.

ب - الحالة الذهنية.

ج - مدى الانفتاح الفكري.

مساحات للتأمل

عند تناول جوانب من مظاهر الفجوة بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه، تمَّت الإشارة إلى أن الثقة المتزايدة في معارفنا وقدراتنا، قد تُؤدِّي إلى "توجُّه غير متوازن"، يقود إلى إصدار أحكام متسرَّعة على الأعراف المجتمعية والمنظومات القيِّمية، وصولاً إلى بعض المعتقدات الأساسية.

ويُقصد بالتوجُّه غير المتوازن ، التوجُّه الذي يقودنا بعيداً عن "مواقع مُثلى" من معادلة

التوازن. وفي ذلك نُشير إلى أن الانحراف عن التوجُّه المتوازن يكمن خلف جزء كبير من التحديات التي يواجهها الجيل الجديد بشكل خاص، والعالم العربي بشكل عام.

لبيان ذلك، يقوم هذا الباب بتناول مؤثِّرات على "التوجُّه المتوازن". ويتم من خلال ذلك، تقديم

إطار نظري ، يُظهر بواعث أشمل خلف الفجوة بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه، ومظاهر ارتباطها بتحديات أكبر تقف أمام فرص تقدم العالم العربي.

وسنبدأ في سبيل ذلك بتناول قانون التوازن الكوني . هذا القانون، الذي يُؤدِّي تجاهل

مقتضياته إلى العديد من الأضرار، التي ترتبط بتبني توجهات غير متوازنة.

يمثل "التوازن" قانونًا كونيًا يُوفّر الاستقرار لهذا الكون، وذلك من خلال إيجاد حالة "اتزان" في العلاقة بين الكواكب والنجوم واليابسة والماء، وتوفير البيئة المناسبة لحياة الإنسان، وتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الأفراد والمجتمعات⁽¹⁾.

وتؤكد على أهمية هذا القانون، قواعد أصيلة، تشمل: "لا ضرر ولا ضرار"⁽²⁾؛ و"لا إفراط ولا تقريط"⁽³⁾؛ ومبدأ (وكان بين ذلك قوامًا)⁽⁴⁾، والتي تُمثّل أُسسًا معيارية لتحديد مواقع مُتلى بجميع الظواهر الحديّة.

ويُعرّف "معجم مقاييس اللغة"، "التوازن"، بكونه مفهومًا يدلّ على "تعديل واستقامة". ويُشار في هذا التعريف إلى ارتباط التوازن برجاحة الرأي وشِدّة العقل⁽⁵⁾. أما من حيث الاصطلاح، فيُعرّف "التوازن" بأنه: "إعطاء كل شيءٍ حَقّه، من غير زيادة ولا نقصان؛ ينشأ عن معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، ومعرفة حدودها وغاياتها ومنافعها"⁽⁶⁾.

ويُظهر التعريف اللغوي والاصطلاحي للتوازن جانبيين أساسيين من جوانب مفهوم التوازن، ألا وهما: "شموليته" من جهة، و"تغيّر متطلّباته" مع تغيّر الأوضاع والغايات والمنافع المرجوة من الجهة الأخرى.

أما من حيث "شمولية التوازن"، فإن إعطاء كل شيءٍ حَقّه، يقتضي تَوْحّي التوازن في كل الأمور. ويشمل ذلك: الأمور الحياتية، والدينية، والاقتصادية⁽⁷⁾، والاجتماعية⁽⁸⁾، والأخلاقية⁽⁹⁾، والبيئية⁽¹⁰⁾، وما إلى ذلك.

وأما عن "تغيّر متطلّبات التوازن" مع تغيّر الظروف، فنشير، على سبيل المثال، إلى اختلاف متطلّبات "التوازن الاقتصادي"⁽¹¹⁾ من مجتمع لآخر، وحسب مراحل تطوّر هذه المجتمعات.

كما يظهر تغيّر متطلّبات التوازن أيضًا، على سبيل المثال، في تغيّر متطلّبات تحقيق التوازن بين "الحياة والعمل"⁽¹²⁾ مع تغيّر الظروف؛ ذلك أن الموازنة بين متطلّبات "الحياة والعمل"، ترتبط بطبيعة الفرد وظروفه الاجتماعية والاقتصادية والنفسية، ناهيك عن المستجدات التي تطرأ على "بيئة العمل"، وما إلى ذلك.

لذا، فإن التوازن يُمثّل عملية نموّ وتطوير مستمرة، تتطلب قَدْرًا من الوعي والحكمة، ونظرة أشمل، تأخذ المتغيّرات والمصالح الخاصة والعامة في الاعتبار، وتهدف في مجملها إلى الوصول

إلى الوضع "الأمتل" على جميع المستويات، وبشكلٍ مستمر (13).

من هذا المنطلق، وبالرغم مما يبدو من منطق سليم في مفهوم التوازن، فإن تحقيق التوازن يُمثّل أحد أكبر التحديات التي تواجهها البشرية. ولقد كان تجاهل الوسطية مدخلاً لوقوع المجتمعات في الكثير من المشاكل، بما فيها الانحسار الحضاري.

وتكمن "صعوبة" أخذ مواقع وسطية على معادلة التوازن، في "سهولة" الانسياق إلى جانب من جانبي المعادلة، بدلاً من بذل الجُهد للوصول إلى الموازنة بينهما. ويتطلّب التوجّه نحو "مواقع مُثلى" من معادلة التوازن، قَدراً من الوعي والمعرفة والأمانة، يمنع التحيز التلقائي، أو العاطفي، أو المُعرض، الذي يقودنا بعيداً عن الوسطية.

وتزيد "تحديات" الموازنة بين طرفي المعادلة، عندما ترتبط الخيارات برغبات غريزية، أو توجّهات عقدية، وما إلى ذلك. وتشمل هذه التحديات، على سبيل المثال، الموازنة بين: الحرية والانضباط، والانغلاق والانفتاح، والأصالة والتجديد، والتساهل والتشدّد، والدين والدنيا، والأخلاق والسلوكيات، والأقوال والأفعال، والأمانة وتحقيق المكاسب، وعزّة النفس واحترام الآخرين، وما نعلم وما لا نعلم، والانتماء والتعصّب، والحرص و"التخوين"، والتعلّم من الآخرين والانتقاد لهم، والخوف والرجاء.

وينعكس "الفشل" في تحقيق "التوازن" في هذه المجالات، على العديد من "التحديات" التي تواجه الجيل العربي الجديد، وترتبط بتحديات أكبر تقف أمام فرص تقدم العالم العربي.

وسيتّم فيما يلي تناول المؤثّرات على "التوجّه المتوازن"، التي قد تقود إلى هذه التحديات. وتشمل هذه المؤثّرات: الخلفية الثقافية، والتوجّه الذهني، ومدى الانفتاح الفكري. وذلك على النحو التالي:

أ - الخلفية الثقافية

عند الاطلاع على آراء العلماء عن الظواهر الطبيعية والكونية، نلاحظ تعدّد طرق فهمهم لها. ويزيد الاختلاف في شرح هذه الظواهر تبعاً لتباين خلفيات الباحثين الثقافية.

على سبيل المثال، يقوم علماء الاقتصاد بتفسير معظم أسس العلاقات بين البشر من منظور اقتصاديٍّ بحت. هذا في حين يقوم علماء النفس أو الاجتماع، مثلاً، بإيراد تفسيرات أخرى لهذه

الظواهر، كُلاً من منظوره.

وبالرغم من اختلاف نظريات تفسير الظواهر الطبيعية والكونية باختلاف خلفيات الباحثين فيها، فإن هذه النظريات عادةً ما تكون متماسكة منطقيًا؛ ذلك أنها تُمثّل جوانب، أو مستويات، من طبقات الحقيقة⁽¹⁴⁾.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، نجد أن كل من يبحث عن الحقيقة⁽¹⁵⁾، من أيّ من جوانبها، بصدق وأمانة، ودون تحيّز، يصل إليها. هذا في حين يُؤدّي التحيّز إلى دَفْع الأفراد والمجتمعات، بعيداً عنها.

وفي ذلك نشير إلى أن "المبالغة في التحيّز" نحو جانب من جانبي "معادلة التوازن" على حساب الآخر، تُؤدّي إلى حدوث خَلَل، يُبعدنا عن الوصول إلى "مواقع مثلى" من هذه المعادلة. على سبيل المثال، قد يُؤدّي تعمّق بعض الدارسين للفكر الغربي، أو افتتانهم بثقافته، إلى الوصول للمرحلة التي لا يرون فيها العالم، أو الأفكار، أو الدين، إلا من "المنظور الغربي".

ليس ذلك فحَسْب، بل إن "الثقافة الغربية" تصبح جزءاً من هويّتهم، للدرجة التي تجعلهم يرفضون أي منظور آخر، أو يقلّلون من قيمته؛ من منطلق أن أي منظور آخر للكون أو المجتمع يهدّد هذه الهوية. وتدخل هذه الظاهرة خلف الكثير من مظاهر الفجوة بين بعض أفراد الجيل العربي الجديد ومجتمعاته، والتي تم التطرق إليها في البابين الأول والثاني.

وينطبق هذا الأمر أيضاً على ظاهرة "إيغال" الفرد في الدين لدرجة "التشدّد". ويُؤدّي هذا "التشدّد" إلى خلل في "نظرة الفرد والمجتمع إلى العالم والدين"، ومن ثمّ إلى تبني آراء عن الدين والدنيا، وسلوكيات غير متوازنة، قد تُضُر بالفرد والمجتمع، والعالم⁽¹⁶⁾.

وسيتّم التطرق إلى المزيد عن هذه الظاهرة، ضمن أمور أخرى، في القسمين (ب) و(ج) التاليين وفي "الباب الرابع"، عند تناول التحديات التي تقف في طريق تقدم عالمنا العربي.

ب- الحالة الذهنية

إضافةً إلى "الخلفية الثقافية"، تمثّل "الحالة الذهنية" عنصراً مؤثراً على "التوجّه المتوازن" الذي يتطلبه الوصول إلى "مواقع مثلى" من معادلة التوازن. وتختلف "الحالة الذهنية" من شخصٍ لآخر. وقد تتشكّل هذه الحالة نتيجة لأسباب شخصية أو ثقافية أو اجتماعية، أو لأسباب وراثية أو سيكولوجية تقع خارج مجال هذا الكتاب.

ويظهر تأثير الحالة الذهنية في اختلاف رؤية الأشخاص للأمور. ولعلّ كُلاً منا قد صادف أناساً

عايشوا واقعًا مُعيَّنًا، إلا أن كُلاًّ منهم رأى هذا الواقع، وعبر عنه، واستجاب له، بشكل مختلف عن الآخرين.

بعد رحلة دراسة لعدة سنوات في الغرب، عاش خلالها ثلاثة أشخاص في نفس المدينة، وصف أحدهم تجربته، فقال إنها كانت "أفضل سنوات عمره". ووصف بلاد الغرب، بشيء من الأسى، بأنها بلاد الثقافة والتحضُّر والحرية، التي لن نصل إلى مستواها مهما حاولنا. وأشار إلى أنه "بانتظار الساعة" التي يعود فيها إلى الغرب؛ للتخلُّص من حياة التخلف في بلده.

في المقابل، وبعد معايشة نفس التجربة التي مرَّ بها الشخص الأول، وما تعلَّمه من الغرب، وصف الشخص الثاني بلاد الغرب بأنها "بلاد الكفر والإلحاد والتفسُّخ الأخلاقي"، وأنها "سبب جميع مأسينا وتخلفنا"، وأن "الله سينتقم لنا منها"، وأنه بانتظار "تلك الساعة".

أما الثالث فأشار إلى أنه "تعرفَّ خلال إقامته في الغرب على مظاهر حضارة مُتقدِّمة، يمكن الاستفادة منها في تطوير مجتمعه، الذي لا يفتقر إلى الكفاءات والقيم الأصيلة، وأنه يعمل جاهداً على تطبيق ما تعلَّمه لتحقيق هذا التطوير".

لإظهار أسباب الاختلاف في الرؤية التي تُشير إليها الحالات أعلاه، نتناول فيما يلي بعض "الدوافع" خلف تبني "حالات ذهنية" غير متوازنة، ترتبط أغلبها "بأوهام"⁽¹⁷⁾، تقودنا بعيداً عن "مواقع مُثلى" من معادلة التوازن.

ونبدأ في ذلك بتناول دافع "الثقة المتزايدة" في معارفنا وقدراتنا، والذي يرتبط "بوهم المعرفة" الذي سبقت الإشارة إليه في الباب الأول. وكما أشرنا في حينه، قد يُؤدِّي ذلك إلى "توجُّه غير متوازن"، يقود إلى إصدار أحكام متسرَّعة على الأعراف المجتمعية والمنظومات القِيَمية، وصولاً إلى بعض المعتقدات الأساسية.

وكثيراً ما تُمثِّل هذه الظاهرة "مرحلة" يمرُّ بها البعض من الجيل الجديد، وبمستوى أقل نسبياً الجيل الذي سبقه، خلال رحلة "البحث عن الطريق"، والتي مرَّ بها البعض من العلماء والمفكرين في عالمنا العربي⁽¹⁸⁾.

لذا، يتطلَّب التعامل مع هذه الظاهرة، عدم تعجُّل المجتمع في إصدار أحكام نهائية، قد تكون مُدمِّرة، على هذه الفئة، وتوفير البيئة المناسبة لتصل هذه الفئة إلى رؤيتها المتوازنة، وذلك أسوةً بنماذج مستتيرة⁽¹⁹⁾، وأخرى ذات دلالة⁽²⁰⁾، من تراثنا.

ويأتي "العناد" ، أيضًا، كدافع آخر يُؤثر على الحالة الذهنية للفرد، والذي يحضر عادةً في الأمور الجدلية، وخصوصًا في القضايا الفلسفية والعقدية. وقد تتمثل هذه الظاهرة في عدم قبول الرأي الآخر، لمجرد اختلافه عن رؤيتنا، أو لعدم الرغبة في ظهورنا بمظهر الخاسر في أي جدال، أو غير ذلك.

كما قد يَنُتج دافع "العناد" لدى الفرد عن تشدّد المجتمع في فرض آراء أو سلوكيات معينة عليه. وقد لا تتعارض مبادئ الفرد مع هذه الآراء أو السلوكيات بشكل عام، إلا أن التعسّف في فرضها قد يُؤدّي إلى نشوء حالة عناد تَظْهَر في رفض الفرد لتبنيها، بالرغم من إيمانه بها. وقد ينطبق ذلك على حال بعض أبناء وبنات الجيل العربي الجديد، الأمر الذي يتطلّب الحد من الأسباب التي تُؤدّي إلى حالة العناد هذه.

ويُمتلّ "الكِبَر" دافعًا آخر، يُمكن أن يُشكّل حالتنا الذهنية. وعادةً ما يَظْهَر هذا الدافع في شكل عدم تقدير الفرد لآراء الآخرين، أو إظهار تفوّق أفكاره وقدراته، أو غير ذلك.

وقد يجاهر البعض بآراء قد توحى بعدم إيمانهم، نتيجة للكِبَر، أو العناد، في حين أنهم يؤمنون في السّر. وتحضّرني في هذا الصدد مقولة تقيّد بأنه "لا يوجد ملحدون في جحور الثعالب"⁽²¹⁾ (There are no atheists in foxholes). ويُفصّد بذلك أنه في حين قد "يَتَشَدَّق" البعض بعدم الإيمان، بسبب الكِبَر أو العناد، فإنهم يستتجدون بالله، عند مواجهة خطر الموت.

من الجانب الآخر، فإن أكثر الدوافع خطرًا على واقعنا العربي، هو دافع "الخوف" ، والذي يدخل خلف الكثير من "التوجّهات غير المتوازنة". وتبلّغ قوّة تأثير "الخوف"، للقَدْر الذي يجعله يكاد يدخل خلف جميع الدوافع الضارة، مثل: العناد والكِبَر والكراهية والتشدّد والعنف والنفاق والجشع والحسد، وغيرها.

ويرتبط دافع "الخوف" بشكل وثيق "بالجهل" . لذا، سنبدأ في تناولنا لدافع الخوف، بتعريفنا للجهل، وما له من أثر مدمر على الأفراد والمجتمعات، وذلك على النحو التالي:

يُعرّف "الجهل" في اللغة بكونه ضد العلم، ويُعرّف اصطلاحًا "بمعرفة الأمور على خلاف ما هي عليه"⁽²²⁾. ويُقسّم الجهل إلى ثلاثة أنواع: جهل بسيط، يرتبط بفهم المسألة دون الإحاطة

الكاملة بها؛ وجهل كامل، يرتبط بعدم علم أي شيء من المسألة؛ وجهل مركّب، ينطبق على الفرد الذي يعتقد جازماً بمعلومة معيّنة، بما لا يتفق مع الواقع والحقيقة⁽²³⁾.

ولا يقتصر تعريفنا لما نُسّميه "الجهل الشامل" على تعريف الجهل أعلاه (من حيث أنه ضد العلم)؛ حيث يرتبط الجهل أيضاً بمحدودية "الوعي".

وتُعرّف "الموسوعة الفلسفية" "الوعي" بكونه جوهر الإنسان وخاصيته التي تُميّزه عن باقي الكائنات الحيّة الأخرى. ويُمثّل الوعي حالة عقلية من اليقظة، "يدرك" الإنسان من خلالها نفسه وعلاقاته بما حوله من زمان ومكان وأشخاص⁽²⁴⁾. ويُطلق على هذا المستوى من الوعي "الوعي التلقائي".

وهناك أيضاً "الوعي السيكلوجي"، الذي يرتبط بمجموعة الأحاسيس والمشاعر التي تكمن في أعماق الذات. ويظهر هذا الوعي على شكل وعي سياسي أو أخلاقي⁽²⁵⁾.

ويمكن تمييز "مستويين للإدراك" (الرديف للوعي). ويُمثّل "المستوى الأعلى من الإدراك"، المستوى الذي يتوافر فيه للفرد قدرٌ كافٍ من "الوعي والمعرفة" يُمكنه من الوصول إلى "توجّه متوازن"، لا يجعله عُرضةً لأوهام عن الواقع أو لتأثيرات خارجية غير واعية أو مُغرِضة.

أما "المستوى الأدنى من الإدراك"، فيظهر لدى فئة ذات مستوى معرفي عادةً ما يكون بسيطاً، ووعياً قاصراً، يحد من قدرتها على رؤية نفسها والعالم من حولها بشكل متوازن، ويجعلها عُرضةً للتأثيرات الخارجية والأوهام. ويُمثّل هذا المستوى من الوعي والمعرفة ما نقصده بتعريفنا "للجهل الشامل".

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الوصول إلى المستوى المناسب من الوعي والمعرفة، حسب تعريفنا أعلاه، لا يتطلب بالضرورة حصول الفرد على "درجات علمية متقدمة". ذلك أننا قد نجد أشخاصاً ذوي تعليم منخفض نسبياً، يتمتعون بوعي وتوازن من حيث رؤيتهم لأنفسهم والعالم من حولهم، بالقدر الذي لا يجعل من السهل على الآخرين التأثير السلبي على أفكارهم، بجهل أو بسوء نية. وقد لا يتوفّر ذلك المستوى من الوعي والتوازن لدى بعض الحاصلين على "شهادات عليا".

بتعريفنا "للجهل"، نعود إلى علاقته الوثيقة "بالخوف". وفي ذلك نشير إلى أنه قد تم استخدام "سلاح الخوف" منذ بدء الخليقة في السيطرة على عقول البسطاء(26)، الذين عادةً ما يكونون عُرضةً "للأوهام والأساطير"؛ وذلك بهدف استغلالهم وتسخيرهم لأغراض خاصة(27).

ولا يزال هذا السلاح يُستخدم بفعالية في عصرنا الحاضر للسيطرة على عقول البسطاء، بأشكال تضر بالأفراد والمجتمعات. وفي علاقة الخوف بالجهل وما قد ينتج عنهما من أضرار، يقول ابن رشد:

"الجهل يقود الى الخوف، والخوف يقود الى الكراهية، والكراهية تقود الى العنف. هذه هي المعادلة"(28).

وسنتطرق في "الباب الرابع"، ضمن مواضيع أخرى ترتبط بالتحديات التي تقف أمام فرص تقدم عالمنا العربي، إلى عنصر "الوهم"، المرتبط بالخوف النابع عن جهل، وما لذلك من تأثير سلبي على الأفراد والجماعات في مجتمعاتنا، وانعكاس ذلك على إمكانيات تقدمها.

ج- مدى الانفتاح الفكري

يُمثّل مستوى الانفتاح الفكري أحد المؤثرات الرئيسة على التوجّه نحو مواقع مُثلى من معادلة التوازن. ويؤثر هذا العنصر على "قدرتنا على تمييز جوانب مختلفة من عالمنا"، ومن ثمّ على تبني مواقف وخيارات متوازنة تجاهه.

ويحضرني في هذا الصدد، ما أشار إليه الكاتب "روبرت كايوساكي" في أحد كتبه(29)، من أن "مستوى إدراك الفرد" يعتمد على "قدرته على تمييز جوانب الاختلاف في الظواهر من حوله" (Intelligence is the ability to differentiate). ولقد فسّر لي ما أشار إليه السيد "كايوساكي" بعض أسباب الخلافات التي قد تحدث بيننا.

ويظهر تأثير "القدرة على تمييز جوانب مختلفة من القضايا"، فيما قد نراه من اختلاف بين شخصين، يتمكّن "المنفتح فكرياً" منهما من أخذ العلم المفيد أينما وجد، وتقديم رؤى "توازن" بين

ثقافته المحلية والمستجدات العالمية، بشكل يُقيده ومجمعه. هذا في حين يكتفي "المُنغلق فكرياً" بالانحياز نحو ثقافته المحلية، وعدم الإفادة من المستجدات من حوله.

من الجانب الآخر، يمكن تمثيل مدى الانفتاح الفكري على العالم والثقافات الأخرى، بحالة شخصين، يرى أحدهما "جميع الألوان"، بينما لا يرى الآخر إلا "الأبيض والأسود".

وفي حين يُجاهد من يرى بقية الألوان في إثبات وجودها، فإن الآخر، الذي لا يرى إلا الأبيض والأسود، لا يُميّز هذه الألوان، وبالتالي فإنه يظن أن المتحدث عنها إما جاهلاً أو كاذباً.

وكما تم إيضاحه في الملحقين: (1) و (2) من هذا الكتاب، فإن عدم رؤية، أو فهم، ظواهر كونية على حقيقتها لا يعني بالضرورة عدم وجودها.

من أوضح الأمثلة على رؤية البعض لمستويات جديدة من العلم الكوني، التي لا يراها أو يفهمها المُنغلق فكرياً، "ومن ثمَّ يحاربها"، القصة الشهيرة للعالم الإيطالي "جاليليو". هذا العالم الذي نظَرَ إلى الأجرام السماوية عبر "التلسكوب"، وتوصَّل إلى حقيقة أن القمر ليس مُسطحاً، وأثبت نظرية أن الأرض ليست مركز الكون⁽³⁰⁾.

وكما نعلم، فإن اتساع أفق هذا العالم للمستوى الذي مكَّنه من رؤية مستويات أعلى من الحقائق الكونية، تمَّت مُحاربتَه من قِبَل أصحاب القرار خلال فترة القرون الوسطى الأوروبية، نتيجةً

للتشدُّد الذي أدَّت إليه حالة الانغلاق الفكري التي سادت في حينه.

ذلك أن أفكار هذا العالم اعتُبرت مصدر "تهديد" للمفاهيم الدينية السائدة، "ومُخالفة" للتوجُّه العام

في تلك المرحلة. وعَنِّي عن الذِّكر، أن هذه النظرة المنغلقة إلى العالم والدين كانت من أسباب تخلف أوروبا آنذاك.

وعلى غرار ذلك، يعاني عدد من مجتمعاتنا من تقسِّي ظاهرة "الانغلاق الفكري"، والتي تظهر في العديد من الأشكال، والتي من أهمها "التخوُّف من أي أفكار جديدة، أو تفسيرات حديثة أو تطوير لمفاهيم دينية". وتتم، نتيجةً لذلك، مُحاربة العلماء والمفكرين الذين يبادرون بتقديم قراءات فكرية حديثة.

وتأتي التأثيرات الضارة لظاهرة الانغلاق الفكري التي تشمل محاربة الأفكار الجديدة

والتشدد والكراهية والعنف، لتجعل من "الانغلاق الفكري" أحد أخطر المسببات^❶ لنقاط ضعف ومهددات لإمكانات تقدّم مجتمعاتنا^❷. لذا، تم في الباب الخامس من هذا الكتاب اختيار^❸ الحد من ظاهرة الانغلاق الفكري^❹ كأحد "مؤشرات" إحراز الدول العربية للتقدم.

بتناول البابين الأول والثاني لموضوع الفجوة بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه، وتناول هذا الباب لبواعث خلف هذه الفجوة ترتبط بتحديات يواجهها العالم العربي، سيتم في الباب الرابع تناول هذه "التحديات"، التي تقف أمام فرص تقدم دول عالمنا العربي.

مساحات للتأمل

• كيف يُمكننا تحقيق المزيد من الاستفادة من التطبيقات "قانون التوازن الكوني"، كمعيار نظري وعملي، لتحديد "مواقع مُثلى" بالقضايا الأخلاقية والاجتماعية والتنمية والحضارية؟
• كيف تؤثر خلفيتي الثقافية على رؤيتي لنفسي والعالم من حولي؟ وكيف يُمكن أن أُطوّر هذه الرؤية لتكون أشمل؟

• كيف يُؤثر "العناد" أو "الكبر" على توجّهي الذهني، ومن ثمّ على بعض آرائي أو تصرفاتي؟ وهل يمكن أن أتعلّم سُبُل السيطرة على هذه المشاعر الضارة؟

• هل يُدرك الجيل الذي سبق أهمية إتاحة الفرصة للجيل الجديد للوصول إلى قناعات متوازنة بناءً على فهم واقتناع، بدلاً من التعجّل بفرض آراء عليه قد يحتاج إلى بعض الوقت والتجربة لبلورة مفاهيمها بأسلوبه الخاص؟

• هل يعي الجيل الذي سبق، أيضًا، أن أمام الجيل الجديد عُقودًا من الزمن، والعديد من فرص النمو والتجارب، للوصول إلى "رؤيته المتوازنة"؟

• ما هو تعريفي للجهل؟ وما مظاهره في مجتمعي؟ وكيف يؤثر على قدرة مجتمعاتنا على تحقيق التقدم؟

• انطلاقًا من ارتباط الخوف بأوهام، تنتج عن الجهل وتضرّ بالأفراد والمجتمعات، كيف نحد من أضرار هذا المرض؟

• ما هي مظاهر أضرار "الانغلاق الفكري" بمجتمعاتنا، وكيف يُمكن الحد منها؟

• ما أهم التحديات التي تقف حاليًا أمام فرص تقدّم دول عالمنا العربي؟

1() ويُدل على ذلك قوله عز وجل:(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ((8))، سورة الرحمن، الآيتان: 7-8.

2() الحديث الشريف: "لا ضرر ولا ضرار"، رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما.

3() قاعدة شرعية مبنية على العديد من نصوص الكتاب والسنة التي تدعو إلى التوازن.

4() (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)، سورة الفرقان، آية: 67.

5() تعريف بتصريف، من "معجم مقاييس اللغة"، تأليف أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، وتحقيق عبد السلام هارون، 1979.

6() "توازن وألويات"، موقع ملتقى الخطباء، 2017.

7() ريماء عاصي وديفيد فاين وكيفين سنيدر، "قانون التوازن العظيم .."، هارفرد بزنس ريفيو"، 2020.

8() عبد الله عبد اللطيف الإبراهيم، "التوازن الاجتماعي: أفكار لفهم أنفسنا وفهم من حولنا"، 2019.

9() ستم الإشارة إلى أهمية الموازنة بين السلوكيات والأخلاق لاحقاً.

10() الجوهرة بنت تركي العطيشان، "البيئة والإنسان ... اختلال العلاقة وحتمية التوازن"، موقع رواد الأعمال، 2020.

11() "ترجمة وتعريف مصطلح التوازن الاقتصادي بالعربية"، موقع "م" للأعمال، 2021.

12() "تحقيق التوازن بين الحياة والعمل: نصائح لاستعادة السيطرة"، مايو كلينيك، 2020.

13() تم في كتاب "طريق التوازن" تناول عملية التطوير هذه، على المستوى الشخصي والاجتماعي والمهني.

14() يُشير تتاسق النظريات عن الظواهر الكونية، بالرغم من اختلاف مجالاتها، إلى وحدانية خالق الوجود. ويؤكد على ذلك قوله (عز وجل): (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ)، سورة المؤمنون، آية: 91.

15() ونقصد بذلك البحث في الظواهر الكونية، كدلائل على الحقيقة المطلقة.

16() الحديث الشريف: "إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق"، رواه أحمد، وحسنه الألباني. وكما سبقت الإشارة، ينطبق ذلك أيضاً على عدم الموازنة بين الدين والدنيا، الأمر الذي أشار إليه (عز وجل) في قوله:(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۗ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۗ وَأَحْسِنْ ۗ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۗ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)، سورة القصص، آية:

- 17) سيتم تناول موضوع "الوهم" بشكل أكثر تفصيلاً، لاحقاً في هذا الباب، وفي الباب التالي.
- 18) عاصم إسماعيل، "كيف انتقل مصطفى محمود من مرحلة "الشك" إلى اليقين؟، موقع عمرو خالد، 2021.
- 19) وفي ذلك نشير إلى نموذج راقٍ قدمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في التعامل مع شابٍ أتاه فقال: يا رسول الله، أئذَنْ لِي بِالزَّنا. فأقبلَ القومُ عليه فزَجَرُوهُ. فقال (صلى الله عليه وسلم): "أدْنُهُ". فدنا منه قريباً، فجلس، قال: "أُتِجِبُهُ لَأُمَّكَ؟" قال: لا... إلى آخر الحديث"، رواه أحمد، وصححه الألباني.
- 20) ونشير في ذلك إلى قصة بحث نبي الله إبراهيم (عليه السلام) عن الحقيقة، في سورة الأنعام، الآيات من 75-78.
- 21) يُطلقُ مُصطلح "جحور الثعالب" على الخنادق التي يحتمي فيها الجنود. ولقد انتشرت هذه المقولة في الغرب خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية.
- 22) ونشير هنا إلى تعريف "التوازن"، الذي سبق تناوله، والذي يتمثل في "معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه". هذا مقارنة بتعريف "الجهل" هنا، والذي يتمثل في "معرفة الأمور على خلاف ما هي عليه"، الأمر الذي يُظهِر أن "الجهل" يمثل عاملاً مضاداً "للتوازن"، وبالتالي يُخلُّ به.
- 23) فراس العلي، "تعريف الجهل: أنواع الجهل الثلاثة وأسبابه"، موقع ويكي ويكي، 2021.
- 24) لذا، يُمثَّل "الإدراك" مظهرًا أساسًا من مظاهر "الوعي"، وورديًا له.
- 25) غادة الحلايقة، مفهوم الوعي في الفلسفة، موقع "موضوع"، 2016.
- 26) يتم في هذا الكتاب استخدام كلمة "البسطاء" كبديل لكلمة "الجهلاء"؛ وذلك تحريًا للياقة.
- 27) استخدم الكُهان في الحضارات القديمة خوف البسطاء، المرتبط بالجهل، في نسج أساطير حول الظواهر الكونية والكوارث الطبيعية، وتم من خلالها استغلالهم والسيطرة على مُقدِّراتهم.
- 28) من كتاب "ابن رشد الفيلسوف"، محمد يوسف موسى، مؤسسة هنداوي، 2014.
- 29) Robert T. Kiyosaki، "RICH DAD POOR DAD: What The Rich Teach Their Kids About Money"، Warner Books, 2001.
- 30) مصطفى ماهر، "محاكمة جاليليو: الصراع الأشهر بين الدين والعلم"، مؤسسة الباحثون المصريون، 2019.

الباب الرابع

تحديات أمام فرص تقدم الدول العربية

أ- أوهام في طريق التقدّم.

ب- ظواهر مُجتمعية وموروثات تاريخية مؤثرة.

ج- بين "التنمية الاقتصادية" و"الاستقرار السياسي".

مساحات للتأمل

بتناول الأبواب الثلاثة السابقة لموضوع الفجوة بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه وجوانب ارتباطها بتحديات أكبر يواجهها عالما العربي، نصل إلى السؤال المُلحّ الذي يشغل الكثير منا في العالم العربي، ألا وهو: ما هي هذه التحديات، التي تُعيق نهوض دول عالما العربي؟

ولقد شغل موضوع النهوض بدول عالما العربي، وما يتبعه من تساؤلات، عمالقة الفكر العربي، الذين تبنّوا طُرُوحات متعددة في تناوله، تمحّورت أهمها حول قضايا مثل: "نقد التاريخ" (1)؛ و"تجديد الفكر العربي" (2)؛ و"نقد العقل العربي" (3)؛ و"نقد العقل الديني" (4).

وبهدف التركيز على الغرض من هذا الباب، فإننا لن نُبحر في هذه النقاشات الثرية والمُتعمّقة. ويُمكن للقارئ الكريم الاستزادة منها، من خلال المراجع المشار إليها في هوامش الصفحات، وغيرها. وتُتملّ هذه الطُرُوحات والنقّاشات "رحلة شبيّقة وأليمة" بين الآمال والإخفاقات وخيبات الأمل.

ولقد دخل العالم العربي، خلال هذه الفترة، في المزيد من الأزمات والكوارث السياسية والاجتماعية والحضارية. هذا في حين جاءت ثورة المعلومات والتقنية لتزيد من مدى اكتساح الفكر الغربي لأرضية الثقافة والحوار والطرح، ولتعمّق الهوة العلمية والثقافية والحضارية بين مجتمعاتنا والعالم من حولنا. كما انتقلت خلال هذه الفترة دول أخرى، كان بعضها يُعدّ من الدول

المتخلفة، إلى "نادي" الدول المتقدمة(5).

من الجانب الآخر، قَدَّم مُفَكِّرُونَ عَرَبِيَّونَ مُعَاَصِرُونَ طُرُوحَاتٍ لِفَهْمِ أَسْبَابِ تَقَدُّمٍ وَتَأَخُّرِ الْأُمَمِ. وَلَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا قَضِيَّةٌ ثِقَافَةٌ وَمَعْتَقَدَاتٌ(6)، فِي حِينِ ذَهَبَ الْبَعْضُ الْآخَرُ إِلَى أَنَّهَا قَضِيَّةٌ اِقْتِصَادِيَّةٌ، تَرْتَبِطُ بِظُرُوفِ بِيئِيَّةٍ وَمَنَاخِيَّةٍ(7)، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَفِي ذَلِكَ نُشِيرُ إِلَى أَنَّ قَضِيَّةَ التَّقَدُّمِ وَالتَّأَخُّرِ لَيْسَتْ قَضِيَّةٌ "اِخْتِيَارٌ" بَيْنَ الثَّقَافَةِ أَوْ الْمَعْتَقَدَاتِ أَوْ الْبِيئَةِ أَوْ غَيْرِهَا، وَالتِّي قَدْ تَفَرَّضَهَا رَغْبَةُ بَعْضِ الْبَاحِثِينَ فِي تَقْدِيمِ مَنْظُورِ أَكَادِيمِي "أَنْيَقٌ"، يُؤَكِّدُ صِحَّةَ نَظَرِيَّاتِهِمْ. ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ تَرْتَبِطُ "بِمَزِيحٍ" مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ، الَّتِي تَتَغَيَّرُ مَعَ اِخْتِلَافِ الْمَرَاكِلِ التَّارِيخِيَّةِ، وَالتَّجَارِبِ الَّتِي تَمُرُّ بِهَا الشُّعُوبُ(8).

لِذَا، فَإِنَّهُ لَنْ يَتِمَّ النَّظَرُ فِي "قَضِيَّةِ تَخَلُّفٍ أَوْ تَقَدُّمٍ مَجْتَمَعَاتِنَا" بِنَاءً عَلَى أُسُسٍ "تَأْطِيرِيَّةٍ"(9)، تَتَجَاوَلُ إِمْكَانِيَّةَ تَطَوُّرِ الْمَجْتَمَعَاتِ مَعَ تَغْيِيرِ الظُّرُوفِ وَمَا تَتَعَلَّمُهُ هَذِهِ الْمَجْتَمَعَاتُ مِنْ تَجَارِبِ(10).

كَمَا لَنْ يَتِمَّ الدَّخُولُ فِي مَازِقِ ❖❖ الثَّنَائِيَّاتِ ❖❖ الْجَدَلِيَّةِ، الَّتِي تَمَثَّلَتْ فِي الْمَفَاضِلَةِ بَيْنَ "الأَصَالَةِ وَالْمَعَاصِرَةِ"، أَوْ "التَّرَاثِ وَالْحَدَاثَةِ"، أَوْ "الإِسْلَامِ وَاللِّبَرَالِيَّةِ"، وَغَيْرِهَا. ذَلِكَ أَنَّ تَبَيَّنَ أَيُّ مَدْخَلٍ مَبْنِيٍّ عَلَى هَذِهِ "الثَّنَائِيَّاتِ" عَادَةً مَا يُؤَدِّي إِلَى مَزِيدٍ مِنْ حَالَاتِ الْاِسْتَقْطَابِ وَالتَّخَدُّقِ فِي جَانِبٍ أَوْ آخَرَ مِنْ جَوَانِبِ الْحَوَارِ، الْأَمْرُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْخِلَافِ غَيْرِ الْمَثْمُرِ.

لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبَ، بَلْ إِنَّ قَضِيَّةَ تَقَدُّمِ مَجْتَمَعَاتِنَا الْعَرَبِيَّةِ، فِي حَدِّ ذَاتِهَا، لَيْسَتْ قَضِيَّةٌ "خِيَارٌ بَيْنَ الْأَصَالَةِ وَالْمَعَاصِرَةِ"، أَوْ أَيٍّ مِنَ الظُّوَاهِرِ "الْحَدِّيَّةِ" الْآخَرَى، وَإِنَّمَا الْوَصُولُ إِلَى ❖❖ نَقْطَةِ التَّوَاظُنِ ❖❖ بَيْنَهَا.

وَتَجْدُرُ الْإِشَارَةُ هُنَا، بِكَثِيرٍ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالتَّقْدِيرِ، إِلَى أَنَّ كَاتِبِنَا الْكَبِيرَ ❖❖ الْأَسْتَاذَ تَوْفِيقَ الْحَكِيمِ ❖❖ قَدْ وَعَى، مِنْذُ خَمْسِينَاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي، أَمْهِيَّةَ تَحْقِيقِ عُنْصُرِ ❖❖ التَّوَاظُنِ ❖❖ فِي مَخْتَلَفِ الْقَضَايَا، حَيْثُ اعْتَبَرَ التَّوَاظُنَ (وَالَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ بِمَسْمَى "التَّعَادُلِيَّةِ") أَسَاسًا لِفَلْسَفَتِهِ فِي الْحَيَاةِ، وَكَمْفَهُومِ إِسْلَامِيٍّ أُصِيلَ(11).

أَخِيرًا، فَإِنَّمَا لَنْ نَخُوضَ أَيْضًا فِي الْجَدَلِيَّاتِ الْمَرْتَبِطَةِ بِتَحْدِيدِ ❖❖ النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ الْأَمْثَلِ ❖❖ لِتَحْقِيقِ التَّقَدُّمِ فِي الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ لِكُلِّ دَوْلَةٍ ظُرُوفَهَا الْخَاصَّةُ بِهَا.

في ضوء هذه الاعتبارات، سيتم البحث في موضوع فرص تقدم دول عالمنا العربي من خلال منظورين، الأول: تاريخي، يستلهم دروساً هامة من تجارب المجتمعات العربية والغربية (وغيرها) خلال فترات نمو وانحسار حضارتها؛ والثاني: تحليلي لبعض الظواهر المؤثرة على "إمكانيات" تقدُّمنا.

ولقد تم في هذا الكتاب استخدام **❖❖** نموذج التحليل الاستراتيجي الرباعي **❖❖** كإطار عام لدراسة "تحديات وممكّنات" تحقيق تقدُّم بالدول العربية (12). وسيتم في هذا الباب دراسة جانب "التحديات" من هذا النموذج، والذي يتمثل في **❖❖** نقاط ضعف **❖❖** و **❖❖** مُهدِّدات لفرص تقدُّم دول العالم العربي **❖❖**.

ويتم عرض التحديات، التي تتمثّل في "نقاط الضعف والمُهدِّدات"، ضمن ثلاثة مواضيع رئيسية، تشمل: أوهام ضارة تعاني منها مجتمعاتنا؛ ومظاهر مجتمعية وموروثات تاريخية تحد من فرص تقدُّم دول العالم العربي؛ وتحديات ترتبط بالتنمية الاقتصادية والاستقرار السياسي. وفيما يلي بيان بهذه المواضيع:

أ- أوهام في طريق التقدُّم

تُعاني بعض مجتمعاتنا العربية (والإسلامية)، من عدد من الأوهام المرتبطة بالدين، والتي تبعدها عن "مواقع مُثلى" من معادلة التوازن. وتنتج أغلب هذه الأوهام عن **❖❖** الخوف **❖❖** المرتبط **❖❖** بالجهل **❖❖** (13)، والذي يقود إلى توجُّهات غير متوازنة تهدد فرص تقدُّم هذه المجتمعات.

على سبيل المثال، هناك شعور دائم لدى البعض "بالخوف" على الإسلام من الآخرين والعالم ككل، وذلك من حيث إنهم قد يُؤدّون بأفعالهم أو أقوالهم إلى الإضرار بالإسلام، بالقدر الذي قد يُؤدّي إلى انحساره. ويُنْتَج عن ذلك نوع من "الرُّهاب" يقود إلى **❖❖** التشدُّد **❖❖**، بدعوى درء المخاطر عن الإسلام.

وفي هذا الصدد، نُشير إلى أنّ الإسلام ليس "كائنًا ضعيفًا"، أو "ظاهرة عابرة" مُعرّضة للزوال، بل هو نموذج حضاري لمبادئ وسمات وُجِدَتْ لتبقى. ويؤكدُ كلُّ من تعهّد الخالق (عز وجل) بحفظ رسالته (14) وتأكيد نبيّه على عدم التشدُّد (15)، على أن "تمادينا" في تبني هذا التوجُّه "غير

المتوازن"، وما يتبعه من سلوكيات، يضر بمجتمعاتنا أكثر مما ينفعها.

وتزيد حدة حالات ❖❖ التشدد ❖❖ مع مستوى الجهل الذي يقود إلى العديد من الأضرار. وتشمل هذه الأضرار، تجييش البعض للبسطاء في العالم العربي (والإسلامي)، بهدف مهاجمة كل من يتلفظ (أو يعبر) بسوء عن الإسلام، وكَيْل السبَاب له، وحتى قَتْلُه.

وإضافةً إلى تشجيع هذه التصرفات للمغمورين والمؤثورين(16) على استفزاز المشاعر الإسلامية، فإنها تضر أيضًا بسُمعة مجتمعاتنا، وتستنزف طاقاتها، وتُحدث حالات عدم استقرار سياسي واقتصادي، تُمثّل مُجمعةً "تهديدات لإمكانات تنمية هذه المجتمعات".

وتتطلب الاستجابة لهذه الظاهرة الضارة بمجتمعاتنا، الاستفادة من أفضل العقول والخبرات في مجالات السياسة والثقافة والإعلام وغيرها، للحد من ضرر السفهاء، وذلك بأسلوب حضاري يحفظ طاقاتنا ويوفر الاستقرار الضروري لتقدم مجتمعاتنا.

من الجانب الآخر، فإن من أخطر نتائج الوهم المرتبط بالخوف من انحسار الإسلام، وأكثرها تهديدًا لفرص تقدم مجتمعاتنا، "التخوف من أي أفكار جديدة أو تفسيرات حديثة أو تطوير لمفاهيم

دينية. ويرتبط هذا التوجّه بشكل مباشر بظاهرة ❖❖ الانغلاق الفكري ❖❖، والتي يتم نتيجة لها محاربة الأفكار الجديدة، ومعاينة كل من يجرؤ على التفكير "خارج الصندوق"، الذي تمّ تحديد جوانبه، بشكلٍ منغلق(17).

ولقد انتشر ❖❖ وهم الخوف من الأفكار الجديدة ❖❖ خلال فترات انحسار الحضارة الإسلامية، والتي اتسمت "بالحمائية" وعدم الابتكار. ونذكر من هذه السمات: الانغلاق على التراث ومحاربة الأفكار الجديدة، وعدم احترام الآراء المخالفة للتوجه السائد، والاكتفاء بتكرار أو شرح أو تلخيص ما جاء في العلوم السابقة، والانتقاص من قيمة المنهج العقلي، وتفضيل العلوم اللغوية والدينية على غيرها من العلوم، والتركيز على البحوث الوصفية والتناسق اللغوي والشكلي، وتقشّي النزاع حول مسائل فرعية أو هامشية، والمبالغة في تعظيم قدر بعض العلماء، ومقاومة تعليم المرأة، وغير ذلك(18).

وكما سبقَت الإشارة في الباب الثالث، واجه العلماء والمفكرّون المعاصرون، الذين بادروا بتقديم قراءات فكرية حديثة، حملات قذّف وتشكيك وتشهير، تم خلالها "تجييش" البسطاء ضدّهم، أو

الاعتداء عليهم، بهدف "وأد هذه الأفكار"، على اعتبار أنها تُمثّل "خطرًا مُحدِّقًا" بالإسلام والمجتمع(19).

ويشكّل هذا التوجُّه "غير المتوازن" خطرًا على فُرص الإبداع والابتكار والتطوير، التي تُمثّل حَجْر الأساس في التنمية والتطوُّر في عصرنا الحديث، كما سيتم بيانه لاحقًا.

كما أن أسلوب "الجمائية"، والتغيب، وعدم الإجابة عن التساؤلات، يُرسِّخ لدى الجيل العربي الجديد فكرة أن ثقافتنا ومعتقداتنا "ليست بالقوة الكافية" للتعامل مع مستجدّات العصر أو "مجابة" الثقافات الأخرى.

أخيرًا، فإن من أكثر "الأوهام" ضررًا بمجتمعاتنا، وتهديدًا لأمنها واستقرارها وتقدّمها، مفهوماً أنّ "العنف والترهيب" هو الوسيلة الأمثل للتمكين. وينتج هذا المفهوم عن "الجهل"(20)، وعن "مزيادات في الدين"(21). ولقد عانت مجتمعاتنا من هذا التوجه وتأثيراته السلبية على علاقاتها السياسية ونشاطاتها الاقتصادية والثقافية.

ويأتي هذا التوجُّه "غير المتوازن" نحو "العنف والترهيب"، على عكس ما تتطلبه "أسس التمكين" في العصر الحديث؛ ذلك أن تجارب العديد من الدول تُؤكِّد على أن "التركيز على التنمية" وما يدعمها من استقرار سياسي وتطوير علمي ودعم للبنى التحتية وغيرها، هو الأساس في تمكين الدول وتقدمها، ومن ثمّ دعم سطوتها الاقتصادية والسياسية على مستوى العالم(22). وسيتم في "الباب الخامس" تقديم عدد من الدلائل العالمية، ومن عالمنا العربي، التي تُؤكِّد على أهمية "التركيز على التنمية" في تقدّم المجتمعات ودعم سطوتها الاقتصادية والسياسية.

ب-ظواهر مجتمعية وموروثات تاريخية مؤثّرة

إضافةً إلى الأوهام المرتبطة بالدين، التي تهدد فرص تقدم مجتمعاتنا، هناك "تحديات أخرى" ذات علاقة بظواهر "مجتمعية وموروثات تاريخية"، ينتج أغلبها، أيضًا، عن "توجُّهات غير متوازنة" تُبعدنا عن الوصول إلى "مواقع مُثلى" من معادلة التوازن.

وتتضمّن هذه التحديات مزيجًا من "نقاط ضعف"، و "مهذّبات لفرص تقدّم مجتمعاتنا". ويتم تناول هذه التحديات في البنود التالية:

1- عدم الموازنة بين السلوكيات والقيم

في حين أن شعوبنا العربية من أكثر شعوب العالم تديناً (23)، تتفشى في هذه الشعوب بعض مظاهر الفساد والرشوة والعتش والتزوير (24). وتُسكَل هذه الظاهرة، التي تتمثل في التركيز على العبادات دون المبادئ الأخلاقية، إحدى سمات "النظرة المنغلقة للعالم والدين"، التي تنتج عن "الجهل".

ولا نقصد هنا الانتقال من قدر العبادات، بل من اعتبار أن أداء العبادات يُعني عن تَبَيِّ القِيم والمبادئ الأخلاقية. هذا بالرغم من أن القيم والمبادئ الأخلاقية تمثل جزءاً أساساً في الدين.

للدلالة على ذلك، نُشير على سبيل المثال إلى ما ورد في الحديث الشريف، "الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس" (25)، والذي يُؤكّد على أهمية تحرّي السلوك الأخلاقي كجزء

أساس في الدين. ويُقدّم هذا الحديث نظاماً أخلاقياً شاملاً، يوفر لنا **❖** بَوْصلة **❖** تقودنا إلى اختيار المواقف الأخلاقية المتوازنة في حياتنا اليومية والعملية.

ويورد هذا الحديث مرحلتين مُهمّتين لتحرّي مدى أخلاقية أو صحّة ما يقوم به الفرد منا، تبدأ أولاً: باختبار داخلي لمدى رضا الفرد منا عن القيام بتصرف مُعيّن، فإذا أحسّ الفرد بَعْدَم الارتياح النفسي لهذا التصرف (حاك في نفسه)، فإن ذلك يُعني أنه تصرفٌ آثم، "غير سليم".

وتحسّباً لإمكانية مغالطة النفس، نتيجة للرغبة العارمة في حصولنا على مكاسب مُعيّنة أو لعدم وضوح الرؤية، يُقدّم هذا الحديث اختباراً ثانياً، ومعياراً مستقلاً، لقياس مدى صحّة أو "أخلاقية" العمل الذي نُفكر في القيام به. ويكون ذلك بتحرّي إحساسنا تجاه علم الآخرين بقيامنا بهذا العمل. وفي حال أحسّنا بالتحرج من علم الآخرين به (كرهنا أن يطلع عليه الناس)، يكون هذا العمل آثماً أو غير سليم (26).

ويُشير هذا النموذج الحضاري إلى الارتباط الوثيق بين الدين والأخلاق، وإلى مدى ما يُخسره بعض المسلمين من تجاهلهم للقيم، ومن تمّ إلى الصورة المغلوطة التي يُقدّمونها عنه للعالم بشكل عام، وللأجيال الجديدة بشكل خاص.

ذلك أن تفشّي فساد الأخلاق، بالرغم من الحديث عنها في المنابر، يرسخ شكوك الجيل العربي الجديد، والعالم من حولنا، في المبادئ التي بُنيت عليها ثقافتنا ومعتقداتنا.

وتُتمثل هذه الظاهرة "نقطة ضعف"، تحد من فرص تقدّم الدول العربية، وذلك من حيث إنها تتسبّب في الإضرار بالتنمية والمجتمع. ويتم في البند التالي تناول أحد نماذج إضرار هذه الظاهرة

بالتتمية والمجتمع.

2- عدم الحرص على الإتقان

تكاد هذه الظاهرة أن تُمثّل عاملاً مُشتركاً بين جميع الشعوب المُتخلفة، وتُشكّل أحد "نقاط الضعف" في مجتمعاتنا. وتختلف جِدّة ظاهرة عدم الحرص على الإتقان من دولة إلى أخرى، حسب اختلاف الظروف الاجتماعية، والقانونية، والبيئة المؤسسية.

وترجع هذه الظاهرة إلى العديد من الأسباب، يأتي في صُلبها عَدَم الموازنة بين السلوكيات والقيم بشكل عام، وبين الأمانة وتحقيق المكاسب بشكل خاص.

وينتج هذا التوجّه "غير المتوازن"، عن الرّغبة في تحقيق مكاسب أعلى وأسرع على حساب نوعية الخدمة أو المنتج، أو لعدم الرغبة في بذل الجُهد اللازم لتحقيق الجودة المطلوبة.

وترتبط حدّة هذه المشكلة بمدى رقابة المجتمعات على مستوى الجودة، وذلك من حيث قوّة مؤسسات حماية المستهلك، وحرص أفراد ومؤسسات المجتمع على الحصول على مستوى عالٍ من الخدمات والمنتجات. كما يأتي غياب الوازع الديني والأخلاقي والمهني كعنصر هام خلف حدّة هذه الظاهرة.

وبتفاوت مستوى الرقابة على جودة الخدمات والمنتجات في العالم العربي من دولة إلى أخرى. إلا أنه لا يصل، في أفضل أحواله، إلى المستوى العالي من الرقابة الذي وصلت إليه المجتمعات المتقدمة.

أما من حيث الوازع الديني، فكما سبقت الإشارة، تعاني مجتمعاتنا بمستويات متفاوتة من ظاهرة "عدم الموازنة بين السلوكيات والقيم"، نتيجة لتبني "نظرة منغلقة للعالم والدين"، تُؤدي إلى تجاهل قيم دينية من أهمّها "إتقان العمل" (27).

كما يُؤدّي حصول بعض فئات المجتمع على مكاسب، نتيجة لصلات هذه الفئات بجهات نافذة، أو لعدم الرقابة عليها، إلى حالة إحباط لدى الأفراد والمؤسسات، تُؤدّي إلى تفشي فكرة أن الربح والغنى لا يتحقّقان إلا من خلال علاقات أو سُبل مُلتوية، بدلاً من تحقيق جودة العمل أو الخدمة. وقد يصل الأمر إلى اعتبار أن الكسب دون جهد أو إتقان، نوع من أنواع "الذكاء"، وأقصر الطرق إلى الغنى.

من الجهة الأخرى، يُؤدّي تَقْشِيّ ظاهرة انخفاض جودة المنتجات والخدمات إلى تَعَوُّد المجتمع على قبول مستويات مُتَدَنِيّة من الإتقان، للدرجة التي يصبح فيها طَلَب المستوى المناسب من الجودة أمراً صعباً أو "غير عملي".

وتُؤدّي هذه العناصر مُجْتَمِعَةً إلى الوصول إلى حَلْفَة مُفْرَغَة من "عَدَم التميّز"، تُؤدّي بدورها إلى تَدَنِيّ الجودة وفساد النفوس والأعمال، ومن ثمّ إلى مزيد من التخلّف.

3- تَقْشِيّ "نظريّات المؤامرة"

ويُمثّل تَقْشِيّ هذه الظاهرة أيضاً أحد التحديات التي يواجهها المجتمع العربي. وتشمل "نظريّات المؤامرة" أفكاراً تُؤثّر بعمق في تشكيل الوَعْي العربي. ويتزايد تأثير هذه النظريّات على الفرد مع مستوى "الجهل"، الذي يؤدي إلى حدوث خلل في اتزان "الحالة الذهنية" لدى الأفراد والمجتمعات(28)، أو لأسباب سيكولوجية خارج مجال هذا الكتاب.

من أكثر نظريّات المؤامرة تداوُلًا في مجتمعات العالم العربي، هي التي تُشير إلى أنّ "جميع" ما يُعانيه العالم العربي، هو نتيجة لمؤامرات كبرى حاكها "العَرَب"، أو "الاستعمار" أو "قوى خفية"، لتحطيم قدرات العالم العربي والإسلامي، وأن هذه القوى أكبر من أن نستطيع مقاومتها، ومن ثمّ فإنّ التخلّف هو قَدْرُنَا الذي يجب أن نتعايش معه.

وتُمثّل هذه الظاهرة "نقطة ضعف" في مجتمعاتنا، تنعكس على انتشار حالة من اليأس، والاستسلام للأمر الواقع، ومن ثمّ عَدَم توفّر الرغبة في التعامل مع التحديات أو بَدَل الجهد لتحقيق تقدّم؛ نتيجة لتَقْشِيّ شعور بعدم وجود جدوى من ذلك.

وفي هذا الصّدّد، تُشير إلى أنه لا يُمكن إنكار حقيقة ترصّد دول ومنظمات لدول أخرى، بغرض إضعافها، أو استغلالها لتحقيق مصالح معينة، أو حرمانها من فُرَص التقدّم، لأسباب تاريخية أو سياسية أو عَقْدية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدول، في مختلف أنحاء العالم، تستخدم مثل هذه الأساليب في حماية مصالحها وتحقيق أهدافها. وتُعَدُّ هذه الدول خُطَطًا (يُمكن أن نُطلق عليها مُسمّى "مؤامرات") خلال عملية التنافس فيما بينها، لتحقيق أهداف قصيرة وطويلة المدى.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى "ألمانيا" و"اليابان"، على سبيل المثال، واللّتين عانتا، بعد الحرب العالمية الثانية، من تكالب القوى عليهما، من الشرق والغرب، للحد من إمكانية نموها بالقدر الذي قد يُهدّد مصالح هذه القوى. وكلنا يرى ما حقّقه هاتان الدولتان من تقدّم، بالرغم من

جميع هذه "المؤامرات".

وينطبق ذلك أيضًا على "الصين"، التي واجهت، ولا تزال، العديد من "التحديات" المماثلة. وبالرغم من ذلك فإنها تتجّه بقوة نحو أن تصبح أكبر اقتصاد في العالم.

لذا، فإن من الطبيعي أن نتوجّس الشر من قوى قد تتآمر علينا. وهناك العديد من الدلائل التاريخية التي يمكن الاستشهاد بها على ذلك. إلا أن ذلك لا يعني أن نستسلم لهذه "المؤامرات"، على اعتبار أنه ليس هناك ما يُمكن عمله لتفادي تأثيرها، أو أن ننظر إلى هذه القوى على اعتبار أنها قوى "أسطورية"، لا يمكن مقاومة خطتها؛ ذلك أن مُجرّد رؤية هذه القوى من هذا المنظور، يستنزف طاقاتها، وبالتالي يزيد من تأثير قوتها علينا.

ليس ذلك فحسب، بل إنه يمكن، من خلال التخطيط السليم والتحالفات الذكية والبناءة، تحويل التأثير السلبي "للمؤامرات" إلى عناصر قوة لخدمة قضايانا(29).

إن "المؤامرات"، كما رأينا في أمثلة الدول أعلاه، لا تقتُ في عَضد الأقوياء، بل تحفّزهم على بذل المزيد من الجهد لدعم قدراتهم على المنافسة. لذا، فإن تحقيق التقدم يتطلب أن ننظر إلى مظاهر "التآمر" علينا كمحفّزات للعمل بشكل جاد، لإثبات أننا دول تستحق التقدم. ذلك بدلًا من أن نَنخِذ من هذه النظريات أعدارًا لعدم التعامل مع التحديات الحقيقية التي تواجهها مجتمعاتنا، أو بذل الجهد للخروج من دائرة التخلف.

4- استمرارية بعض مظاهر "حمية الجاهلية"

ترتبط حمية الجاهلية بشكل وثيق بالجهل ، الذي يؤدي إلى حدوث خلل في اتزان "الحالة الذهنية" لدى الأفراد والمجتمعات. وتمثّل هذه الظاهرة "نقطة ضعف" أخرى في بعض مجتمعاتنا، تظهر في عدة أشكال، يأتي في مقدّمتها "اعتماد الفرد أو المجتمع على الانتماء العرقي أو القبلي أو الطائفي كأساس للتمييز على الآخرين".

ويؤدّي هذا التوجّه "غير المتوازن" إلى إحساس خاطئ "بالفوقية"، يقف عائقًا أمام الرغبة في التطوّر أو الاستفادة من خبرات الآخرين. كما يؤدي أيضًا إلى أضرار اجتماعية وسياسية.

ولقد أتى الإسلام ليؤكد على رفض هذه النعرات(30)، ووضع إطارًا حضاريًا لطبيعة العلاقة بين الأمم(31)، ووصف النبي () النعرات بأنها "مُنْتِنَة"(32).

وتُعاني دولٌ عربية حاليًا من "خلافات طائفية عميقة"، تنتج عن الجهل والانغلاق الفكري، تُؤدّي

إلى العديد من حالات العنف والفساد وعدم الاستقرار السياسي، والتي تنعكس على تحديات اقتصادية تضر بالبنية التحتية ومستوى الدخل وفُرص العمل، وتحد من إمكانيات تقدّم هذه الدول. وإضافةً إلى النعرات العرقية والقبلية والطائفية، تمتد ظاهرة حمية الجاهلية لتصل أيضًا إلى الجانب الديني^{❖❖}. وترتبط هذه الظاهرة "بالنظرة الضيقة للعالم والدين"، والتي تُمثّل أيضًا إحدى مظاهر "الانغلاق الفكري".

ويتمثّل امتداد حمية الجاهلية إلى "الجانب الديني" في ظاهرتين: الأولى ترتبط بالتحيز لمذاهب وتوجّهات دينية معينة لدرجة التعسّف، الأمر الذي يُؤدّي أيضًا إلى تقسّي حالات عنف وعدم استقرار سياسي. أما الظاهرة الثانية فتتعلّق "بحقن" البعض على آخرين لمجرد كونهم يتبعون دينًا غير دينهم. وينتج ذلك عن جهل، أو تناسٍ لمبدأ سماحة الدين وحضّه على التعايش السلمي مع غير المسلمين.

ويُؤدّي هذا التوجّه إلى تحريض الجهلاء من الأديان الأخرى على الإضرار بمسلمين أبرياء، وما إلى ذلك. وتبذل دول إسلامية وغيرها جهودًا مُضنية لإصلاح ما أفسده الجهلاء من الجانبين.

كما تُؤثّر النعرات أيضًا، على فرص تقدّم المجتمعات^{❖❖}. وفي ذلك نُشير، على سبيل المثال، إلى دخول المجتمعات الأوروبية في حروب دموية نتيجة للنعرات العرقية، أتت على الأخضر واليابس، خلال القرون الوسطى.

ولقد انتهت هذه الحروب حين وعت المجتمعات الأوروبية ضرر هذه النعرات وعدم جدوى الحروب والخلافات الناتجة عنها، ومن ثمّ التوصل إلى أن أفضل الطرق للتقدّم هو "طريق التنمية والتعاون فيما بينها". وتعاني عدد من مجتمعاتنا العربية حاليًا من هذه النعرات التي تقف حَجْر عثرة في طريق تقدمها.

إن اعتزاز الفرد بجنسه، أو قبيلته أو طائفته، أو دينه، يُمكن أن يُشكّل طاقة إيجابية دافعة نحو مزيدٍ من التطوّر، وذلك حينما يفترن باحترام الآخرين، والبعد عن التشدّد في الانحياز لفئة أو أخرى، ورغبة في تحقيق إنجازات ترقى بهذا الانتماء.

لقد ولى عَصْر "فغصّ الطرف إنك من نُميرٍ، فلا كعَبًا بلَغْتَ ولا كِلابا"⁽³³⁾، ومضى عهد "ونَسْرَبُ إنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْوًا، وَيَسْرَبُ غَيْرُنَا كَدْرًا وَطِينًا"⁽³⁴⁾، وعهد "ألا لا يَجْهَلَن أَحَدٌ عَلَيْنَا، فَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا". ذلك أن رُقَى الأمم يُفاس بإنجازاتها، وقيمتها، وثقافتها.

5- استخدام الدين في تحقيق أغراض ضيقة

ويُمثّل استخدام الدين في تحقيق أغراض ضيقة أحد ❖❖ أخطر التحديات ❖❖ التي يواجهها عالمنا العربي، والذي يُماثل، في أضراره، ظاهرة ❖❖ الانغلاق الفكري ❖❖ التي سبقَ تناولها، وذلك من حيث الحد من إمكانيات تقدّم دول عربية.

وفي حين يحسّن استخدام جميع الأسباب المُمكنة لتحقيق أهدافنا، ضمن حدود القانون، فإن استخدام الدين في تحقيق الأهداف يُمثّل خللاً في "الرؤية المتوازنة" للدين؛ من حيث إمكانية استخدامه لتحقيق مصالح دنيوية.

ومما يُؤسّف له أن الدين كان، ولا يزال، من أكثر المجالات استغلالاً في تحقيق العديد من الأغراض الدنيوية، نظراً لما له من تأثير وسلطة يمكن استخدامها لإزالة معوقات تصادف تحقيق الأهداف. ويُمثّل ذلك أدنى سبيل الوصول إلى الأهداف.

ولقد تعدّدت أغراض استخدام الدين على مدى التاريخ، فمنها ما كان للحصول على مكاسب مادية، ومنها ما كان للترقي في المراتب، أو لمجرّد الظهور والشهرة. إلا أن أكثر مظاهر استخدام الدين لأغراض خاصة إضراراً بالمجتمع، يرتبط ❖❖ باستخدام الدين لمصلحة مجموعات مُعيّنة أو لأغراض سياسية خاصة ❖❖.

وفي هذا الصدد، نُشير إلى أن حالة الانغلاق الفكري التي تطرّقنا إليها في الباب الثالث، والتي نقّشت في أوروبا خلال القرون الوسطى بدعوى حماية الدين، لم تكن في حقيقتها "حمايةً للدين"، بل "حمايةً لمصالح المؤسسة الدينية وأغراض سياسية خاصّة".

ولقد عانى العالم العربي من "التنظيمات السياسية والجماعات المتشدّدة"، التي استخدمت الدين لأغراض ضيقة، والتي تهدّد فرص تقدّم مجتمعاته؛ وذلك نتيجة للتسبّب في حالات عنف، وعدم استقرار، وفشل ذريع في تحقيق التنمية.

من الجانب الآخر، يبرز عدد من الدول العربية تحت سيطرة "قوى خارجية بدعوى الدين والولاءات المذهبية لتحقيق أغراض سياسية خاصّة". ولا تزال هذه الدول تُعاني من هذا الواقع، وما يرافقه من حالات عنف، وفساد، تتداخل مع الخلافات الطائفية، وتحّد أيضاً من إمكانيات تقدم هذه الدول.

وسيتّم في القسم التالي التطرق لأحد أهم مؤثرات ظاهرة "تسييس الدين" على فرص تقدم الدول العربية، ألا وهو: الإضرار بالتنمية الاقتصادية.

ج-بين "التنمية الاقتصادية" و"الاستقرار السياسي"

أشرنا في القسم السابق إلى الأضرار المرتبطة بظاهرة "تسييس الدين" بالدول العربية، والتي من أهمها "عدم الاستقرار السياسي". وإضافةً إلى التحديات العديدة التي ترتبط بعدم الاستقرار السياسي، والتي تشمل تفشي العنف والفساد والتدخلات الخارجية وغيرها، تُمثّل "التنمية الاقتصادية" أحد أكبر ضحايا عدم الاستقرار السياسي.

لبيان ذلك، سنقوم في هذا القسم بتناول طبيعة العلاقة بين التنمية الاقتصادية والاستقرار السياسي، بشكل مختصر. ونبدأ في ذلك بتناول بعض أسس التنمية الاقتصادية، ومن ثمّ دور عدم الاستقرار السياسي في الحد من فرص تحقيق التنمية الاقتصادية.

من أهم دعائم التنمية الاقتصادية: التخطيط السليم، وتوفير البيئة المحفّزة للإنتاج، وتوفير الموارد الطبيعية والبشرية لتحقيق التقدم. وتختلف الدول العربية من حيث توفر هذه العناصر، الأمر الذي يُؤثر على مواقعها من سلم التنمية.

وفي حين يُؤثر "توفر الموارد الطبيعية" على مستوى التنمية الاقتصادية، فإن قلة الموارد لا تمنع بالضرورة من حدوث التنمية. وهناك دول ليس لديها موارد طبيعية كافية، مثل "اليابان" و"الصين" و"كوريا الجنوبية"، إلا أن ذلك لم يمنعها من الوصول إلى أعلى مراتب التنمية الاقتصادية.

وبالنظر إلى الدول العربية بشكل عام، نجد توفر الموارد الطبيعية لديها بمستويات متفاوتة، وتحظى بعضها بموارد طبيعية أعلى بكثير من المتوسط العالمي.

أما من حيث "عنصر الموارد البشرية"، فلا تشكو الدول العربية بشكل عام من نقص في أعداد السكان. كما يُمثّل الشباب أعلى نسبة من السكان، الأمر الذي يدعم قدرة القوى العاملة بهذه الدول.

ولا يُمثّل "إعداد خُطّ التنمية" عائقًا كبيرًا أمام هذه الدول، حيث تتوفر لدى الكثير من الدول العربية كفاءات تخطيطية ذات مستوى تعليمي عالٍ، وخبرات عالمية. وتتوفّر خبرات التخطيط الاقتصادي أيضًا لدى بيوت الخبرة، ومؤسسات دعم التنمية الاقتصادية الدولية.

وتكمن أكبر التحديات التي تقف حاجزاً أمام التنمية الاقتصادية في الكثير من دول العالم العربي، في "مدى توفر البيئة المناسبة" لتتفاد خُطَط تنمية فاعلة، تعتمد على المقوِّمات التنافسية لهذه الدول في تحويل مواردها الطبيعية والبشرية إلى قنوات الإنتاج. وهنا يكمن "بيت القصيد" في التحديات التي تواجه التنمية في عدد من الدول العربية، وهو عدم توفر "الاستقرار السياسي"، الذي يقف أمام إمكانيات "توفر البيئة المناسبة لتنفيذ خُطَط تنمية فاعلة".

ذلك أن عدم الاستقرار السياسي، يُهدِّد فُرص تقدُّم المجتمعات، من حيث مساهمته في الانحسار الأمني وعدم وضوح الرؤية، الضارَّين بقطاع الأعمال، ومن ثم بمستوى إنتاجية الاقتصاد. هذا إضافة إلى هروب رؤوس الأموال إلى الخارج، والعزوف عن الاستثمار في الاقتصاد المحلي، ناهيك عن إحداث فراغ يُؤدِّي إلى تفشي العنف والفساد (35).

ونظراً لحجم الأضرار التي تُلحقها "ظاهرة تسييس الدين" بالاستقرار السياسي، ومن ثمَّ بالتنمية الاقتصادية التي تُمثِّل عمود التنمية الوطنية، تم في الباب الخامس اختيار "الحد من ظاهرة تسييس الدين" كأحد "مؤشرات" إحراز التقدُّم بالدول العربية.

بتناول "التحديات أمام فُرص تقدُّم الدول العربية"، والتي تُمثِّل "الجانب الأول" من "نموذج التحليل الاستراتيجي الرباعي"، نتناول في الباب الخامس "الجانب الثاني" من هذا النموذج. ويتمثِّل ذلك في دراسة "المُمكِّنات المتاحة لتحقيق تقدُّم بالدول العربية". ويتم في ضوء ذلك تقديم "خطوات مقترحة لتحقيق التقدم".

مساحات للتأمل

- لماذا تقدَّمت، خلال القرن الماضي، دولٌ كانت تُعتبر مُتخلِّفة، ولم تتقدَّم أيُّ من الدول العربية؟
- ما هي سُبُل تعظيم الاستفادة مما أنتجته عُقول عمالقة الفكر العربي؟
- بمعرفة مدى الضرر الذي تسبَّب فيه "أوهام" عن الدين على عالِمة العربي، ما هي أفضل

وأسرع سُبُل تَخَلُّص مجتمعاتنا من هذه الظاهرة؟

• هل يُمكننا إقناع الجيل العربي الجديد والعالم بقيَمنا الثقافية، في حين تخالف سلوكياتنا هذه القِيَم؟ وما المخرج من ذلك؟

• ما هي أكثر السُّبُل فعالية في توعية شعوب العالم العربي بأضرار عدم الحرص على الإِتقان؟ وكيف يمكننا سدّ الثغرات الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، والمؤسَّسية، التي تدفع شعوبنا نحو تَبْذِيرها؟

• كيف نُغَيِّر الفكر الانهزامي في دولنا العربية، المبني على أوْهام عن "عدم قدرة العالم العربي على مجابهة مؤامرات تُحِيكها قوى "أسطورية" تسبَّبت في جميع مظاهر تخلفنا"، والذي أدى إلى نقْشي قنّاعة واسعة بعدم جدوى القيام بأي محاولات لتحقيق التقدم"؟

• لماذا يستمر نقْشي مظاهر من "حمية الجاهلية" في مجتمعاتنا، بعد أكثر من 1400 عام على محاربة الإسلام لها؟

• كيف يُمكن لدول عربية التخلُّص من التأثير السلبي للتنظيمات والجماعات التي تعمل على "تسييس الدين" والتحرُّر أيضًا من سيطرة قوى خارجية تعمل تحت شعارات دينية وولاءات مذهبية؟ وما سُبُل دعم جهود دولنا العربية في تحقيق ذلك؟

• ما هي إمكانيات تحقيق تقدُّم بدول عالمنا العربي؟ وهل يُمكن انتقال دول عربية إلى مصاف الدول المتقدمة؟

1) طه حسين، "في الشعر الجاهلي"، دار الجديد، 1926.

2) زكي نجيب محمود، "تجديد الفكر العربي"، مؤسسة هنداوي، 2018.

3) كُتِب الدكتور محمد عابد الجابري عن "نقد العقل العربي"، 1982 – 2001، وكُتِب مفكرين آخرين في هذا الموضوع.

4) محمد أركون، "قضايا في نقد العقل الديني. كيف نفهم الإسلام اليوم؟"، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، 1999.

5) سيتم تناول هذه النماذج لاحقًا، في هذا الباب.

6) صامويل هنتغتون، "صِدَام الحضارات: وإعادة بناء النظام العالمي"، ترجمة الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، 1999.

7) جيفري ساكس، "نهاية الفقر... الإمكانيات الاقتصادية لعصرنا"، ترجمة مركز القاهرة

لقياسات التنمية، 2017.

8() قد تُودّي رغبة الباحث الأكاديمي في وَضْع نظريّته الخاصة إلى "التعسّف" في التركيز على عناصر مُحدّدة، وتجاهل عناصر أخرى لا تتماشى مع نظريته. إلا أن الأمور لا تسير حسب "مناظير انتقائية" تدّعي "الثبات" على مر العصور، بل على مزيج من المؤثرات التي تتغيّر مع اختلاف المراحل التاريخية والتجارب التي تُمرّ بها الشعوب.

وكما سيتم إيرادها في الباب الخامس، فقد مرّ الأوروبيون بفترات تُشابه ظروفها ما تُمرّ به مجتمعات عربية حالياً. ويؤكد ذلك على أن تغيّر البيئة الثقافية وتجارب المجتمعات، يُمكن أن يُحدث تغييراً في واقعها.

9() وهي الأطر التي يتم من خلالها تقسيم المجتمعات بناءً على أُسس تُناسب غرض الكاتب، الأكاديمي أو الفكري أو السياسي.

10() ويشمل ذلك: تغيّرات في الظروف التاريخية والتجارب المجتمعية، ومُستجدّات فكرية وتنموية وسياسية وتقنية، وغيرها، كما سيتم بيانه في الباب الخامس..

11() توفيق الحكيم، "التعادلية: مذهبي في الحياة والفن"، مكتبة الآداب بالجماميز، 1955. وكذلك كتابه "التعادلية مع الإسلام"، دار الشروق، 2008م

12() يُعدّ "نموذج التحليل الاستراتيجي الرباعي" SWOT ANALYSIS، أحد أشهر نماذج التحليل الاستراتيجي، والذي ابتكره أربعة من الباحثين من كُلية "هارفارد" للأعمال في عام 1965. وتم استخدام هذا النموذج هنا كإطار عام لدراسة إمكانيات تحقيق تقدّم بدول العالم العربي. ويتم من خلال هذا النموذج، دراسة جانبين رئيسيين، يتناول الأول منهما: "التحديات أمام تقدم الدول العربية"، والتي تشمل: دراسة "عناصر الضعف" و"المهدّدات لفرص تحقيق تقدّم بالدول العربية"، والتي يتم تناولها في هذا الباب.

ويتناول الجانب الثاني من هذا النموذج "مُمكنات تحقيق تقدّم"، والتي تشمل "دراسة" عناصر القوة" و"فرص تحقيق تقدّم" في دول عربية، يتم إيرادها في الباب الخامس. ويتم بنهاية الباب الخامس، بناءً على دراسة "التحديات والممكنات"، تقديم "خطوات مقترحة لتحقيق التقدّم".

13() ونقصد هنا "الجهل بمفهومه الشامل" الذي سبقت الإشارة إليه في الباب السابق.

14() وذلك كما في قوله (عز وجل): (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، سورة الحجر، آية: 9.

15() الحديث الشريف: "هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ" (قالها ثلاثاً) تأكيداً في النهي عن التَّنَطُّع. رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود.

16() وهم أناسٌ يكرهون الإسلام وما يرتبط به، لسبب أو لآخر.

- 17() د. عبد المعطي سويد، "أخطاء الفكر التقليدي في معاينة العصر"، صحيفة ثقافات، 2015.
- 18() د. حامد طاهر، "تراجُع الحركة العلمية عند المسلمين"، موقع أ.د. حامد طاهر، 2017.
- 19() لن نُشير هنا إلى أسماء علماء أو مفكرين بادروا بتقديم منظور فكري حديث؛ وذلك تَفادياً للدخول في "مناهات" الارتباط بهذه الطروحات. ويكفي البحث عَمَّا يُكْتَب في شبكات التواصل الاجتماعي عن أيِّ من المفكرين الذين قَدَّموا طرْحاً جديداً لفكر حديث، لنرى الهجوم عليهم والتشكيك في علمهم ودينهم ونواياهم ومرجعياتهم.
- وبطبيعة الحال، فإن ذلك يُسَكِّل عائقاً أمام تقديم أي أفكار جديدة، ويمنع فُرص نَقْدِها بشكل موضوعي أو الاستفادة من الجيّد منها وتطويره، بما يستجيب لمستجدات العصر. وسيتم التطرُّق إلى سُبُل توفير البيئة الملائمة لدعم الأفكار الجديدة البناءة في الباب الخامس.
- 20() ويرتبط هذا المفهوم بِنظرة قاصرة لمفاهيم عن الجِهَاد ونُصرة الدين.
- 21() ويرتبط ذلك بِتَبْنِي تفاسير مُتطرفة لآيات قرآنية وأحاديث نبوية على اعتبار أنها تُمَثِّل التفسير الأُوحد، وتوظيفها لمهاجمة كل من يختلف معها، والاستناد إليها في تبرير تصرفات تضر بالدين والمجتمع. ولقد عَرَفَ الكاتب الكبير الأستاذ أمين معلوف مفهوم "المزايدات" التي أضرَّت بالعالم العربي سياسياً وثقافياً واقتصادياً، وذلك في كتابه المعروف "غَرَق الحضارات"، ترجمة نهلة ببيضون، دار الفارابي، 2001.
- 22() ولا نَقْصد هنا الانتقاص، بأي حال من الأحوال، من أهمية دفاع الدول عن أمنها، عن طريق "جيوش نظامية مُوحَّدة"، تحفظ لها استقلاليتها وحقوقها.
- 23() إحصائية معهد "غالوب" عن مستوى المحافظة والتدين في دول العالم، 2015.
- 24() د. عبد الستار عبد الجبار، "بين الدين والتدين: تصحيح مفهوم"، موقع شبكة الألوكة، 2017.
- 25() رواه البخاري.
- 26() لقي هذا المبدأ الإسلامي الأصل صدَى جيداً عند نشره في كتاب "طريق التوازن" باللغة الإنجليزية. وتمت الإشارة إليه في مجلات بالولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، والهند، تحت عنوان (The Ethical Toolkit).
- 27() ورد في الحديث الشريف: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ﴾. رواه الإمام البيهقي عن عائشة (رضي الله عنها).
- 28() ونقصد بذلك "الجهل بمفهومه الشامل"، الذي تَمَّت الإشارة إليه في الباب الثالث كعنصر يرتبط "بالخوف"، الذي يُؤدِّي بدوره إلى التوجُّه غير المتوازن.
- 29() ويمكن التعرف على جوانب من هذا التوجُّه في كتاب التخطيط الاستراتيجي الشهير، بعنوان "فن الحرب"، للكاتب "سون تزو"، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2017.
- 30() "لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على

أحمر إلا بالتقوى"، من خطبة الرسول () في حجة الوداع.
31() (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا^ه إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)، سورة الحجرات، آية: 13.

32() حديث شريف، رواه البخاري ومسلم.

33() للشاعر جرير.

34() للشاعر عمرو بن كلثوم. وكذلك البيت الذي تلاه.

35() "وزراء عرب... عدم الاستقرار السياسي يُشكّل عاملاً مُحبطاً للاستثمار"، وكالة الأنباء الكويتية، 2004.

الباب الخامس

نحو "قفزة حضارية" قريبة المنال

أ - مُمكّنات متاحة لتحقيق تقدم.

ب - خطوات على طريق التقدم.

بتناولُ الباب الرابع "التحديات" تقف في طريق تقدّم دول عربية، ننقل في هذا الباب إلى "الجانب الآخر" من نموذج التحليل الاستراتيجي الرباعي. ويتمثل هذا الجانب في دراسة مُمكّنات إحداه تقدم في دولنا العربية. كما يتم بنهاية هذا الباب تناول خطوات يُمكن اتباعها لتحقيق هذا التقدم في ضوء دراسة التحديات و المُمكّنات. وقبل تناول هذين الموضوعين، تجدر الإشارة إلى أن ما مرَّ به عالمنا العربي خلال القرن الماضي من انتكاسات وخيبات أمل، قد يُؤثر على مدى توازن رؤيتنا للمستقبل، وذلك من حيث التحيز نحو الخوف من التحديات، على حساب الرجاء في وجود فرص لانتقال أي من دولنا إلى مصافّ الدول المتقدمة.

وبالإضافة إلى عدم "توازن" هذه الرؤية، فإن نظرتنا السلبية إلى المستقبل تُشكّل هذا المستقبل، ومن ثم تقف أمام إمكانية حدوث أي تغيير إيجابي لواقعنا، الأمر الذي يجعل من الضروري الحفاظ على الأمل في مستقبل أفضل، والعمل على تحقيقه، بالرغم من التحديات⁽¹⁾.

وفي هذا الصدد نشير إلى أن الدول التي حققت تقدماً ملحوظاً بنهاية القرن العشرين، مثل "النمور الآسيوية"⁽²⁾، التي عانى بعضها من تحديات اقتصادية واجتماعية أكبر مما تواجهه بعض دولنا حالياً، لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه لولا تحديها للفرضيات السلبية التي أحاطت بواقعها

من جانب آخر، تجدر الإشارة إلى أن عملية الاستفادة من **المُمكّنات المُتاحة**، و**المقترحات** التي سيتم إيرادها في هذا الباب، لا تتطلّب بالضرورة "اتفاق" القارئ الكريم مع الكاتب على "واقعية" جميع هذه المُمكّنات والمقترحات. ذلك أن تعدّد الآراء يُثري الحوار ويفتح مجالات أوسع للمزيد من التطوير.

وتشمل **المُمكّنات والمقترحات** التي سيتم تناولها في هذا الباب، جوانب عديدة، الأمر الذي يفتح المجال واسعًا أمام مساهمة الجميع، بمختلف فئاتهم وخلفياتهم ومواقعهم، في عملية التطوير. لذا، فإنني أمل من القراء الأعزاء، من مختلف مواقعهم، النظر إلى **"المُمكّنات والمقترحات"** في هذا الباب **"كبنود ورقة عمل"**، يمكن أن يتم من خلالها:

(1) دعم جوانب تأثير هذه المُمكّنات؛ (2) البناء على ما يروونه ملائمًا من الخطوات المقترحة للتطوير؛ (3) استشراف مُمكّنات ومقترحات أخرى للوصول إلى المستقبل المأمول.

وَعَوْدًا إلى إمكانيات تحقيق تقدّم بالدول العربية، وكما أشرنا أعلاه، يتم في هذا القسم من الكتاب

تناول **مُمكّنات متاحة لتحقيق تقدّم بدول العالم العربي**، التي تُمثّل الجانب الآخر من "نموذج التحليل الاستراتيجي الرباعي". وتشمل هذه المُمكّنات، مَرِجًا من "نقاط قوّة" و"فُرص مواتية لتحقيق تقدّم". وذلك كما يلي:

أ- مُمكّنات متاحة لتحقيق تقدّم

وتشمل هذه **المُمكّنات** ظهور بؤادر "وعي عربي" جديد، وظروف تاريخية وتنموية وسياسية وتقنية مُحفّزة للتقدم. ويتم تناول هذه المُمكّنات في البنود التالية:

1- ظهور بؤادر "وعي عربي" جديد

يظهر للمراقب بدقّة وعدم تحيُّز، أن ما مرَّ به العالم العربي من تحديات، خلال العقود الماضية،

وعلى رأسها تفشي ظاهرته **التشدّد** و **تسييس الدين**، قد أدّى إلى ردّة فعل، نتج عنها ظهور بؤادر "وعي جديد" لدى بعض مجتمعاتنا العربية.

ولقد أدرك العديد من أبناء وبنات الجيل العربي الجديد، مُبكرًا، أضرار "ظاهرة التشدد"، التي تُمثّل أخطر مظاهر "الانغلاق الفكري"، ورفضوا مظاهره. ونَتَج عن ذلك نُفورهم من ثقافتنا، واعتبارها ثقافة ترتبط "بالتخلف".

لذا، فقد كان الشباب من أوائل الذين استجابوا لدعوات قيادات عربية لنبذ التشدد وتبني القيم الدينية السّميحة، التي عرفناها قبل فترة السبعينيات⁽⁴⁾.

وفي هذا الاتجاه أيضًا، بادرت حكومات عربية، وعلماء ومثقفون، إلى إظهار جوانب الدين السّميحة، والتركيز على الوسطية، ونبذ مظاهر التشدد، والتوعية بأضراره⁽⁵⁾.

ويُمثّل هذا الوَعْي بأضرار التشدد، أحد أهم "نقاط القوّة" التي تدعم فُرص تقدّم دولنا العربية. ويتطلّب التحوّل عن ظاهرة التشدد المزيد من فعاليات التوعية، وتوفير البيئة الثقافية التي تحد من أسباب تفشّي هذا المرض. هذا إضافة إلى دعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية؛ حيث إن ظواهر الفقر والبطالة وانعدام الفرص، مثلت عناصر تمّ استغلالها من قِبَل دُعاة التطرف⁽⁶⁾.

أما عن بؤادر "الوَعْي بأضرار تسييس الدين"، فتظهر أيضًا من خلال تنامي مظاهر رفض المجتمع العربي لهذه الظاهرة، والذي تمّ التعبير عنه في أعمدة الصحف، والمؤلفات، والميادين، والبرلمانات، والفعاليات الثقافية والفنية⁽⁷⁾.

ويُمثّل الوَعْي بأضرار تسييس الدين، أيضًا، "نقطة قوّة" رئيسية، تدعم إمكانيات تقدّم الدول العربية، يُمكن من خلالها الحد من أضرار التنظيمات السياسية والجماعات المُتشدّدة على الدول العربية.

2- التركيز على التنمية بعد التحرُّر من الأوهام

نشهد حاليًا جهودًا مُتسارعة وجادة لدى عدد من الدول العربية، التي أحرزت قَدْرًا من التقدّم في التخلُّص من بعض التحديات التي شهدها العالم العربي خلال العقود الماضية؛ وذلك بهدف تحقيق مستويات متميّزة من التنمية وتطوير مجتمعاتها.

وفي هذا الصدد، نُشير إلى الارتباط الوثيق بين ارتفاع "مستوى الوَعْي" من جهة،

❖❖ وتبني التوجُّه التنمويّ ❖❖ من الجهة الأخرى، الأمر الذي تُوكِّد عليه تجارب عالمية.

ونبدأ في هذه التجارب باستحضار ما سبقت الإشارة إليه من حيث تنبُّه المجتمع الأوروبي، بعد سنين من الخلافات والصراعات ومظاهر التخلف، خلال القرون الوسطى، إلى حقيقة أن أفضل الطرق للتقدُّم تتمثَّل في "التركيز على التنمية والتعاون بين دوله"، وما نتج عن ذلك من تقدُّم (8).

كما نُشير أيضًا، على سبيل المثال، إلى ظاهرة أخرى تُظهر العلاقة بين "الوَعْي" و"التركيز على التنمية" من قارة آسيا. وفي ذلك نُشير إلى الخلافات التاريخية والثَّارات بين "كوريا الجنوبية" و"اليابان"، والتي طغى عليها شعور "الكوريين" بضغائن ثقافية وسياسية تجاه اليابان (9). ونتيجةً لوعي "كوريا الجنوبية"، اختارت هذه الدولة الآسيوية "طريق التنمية"، بدلاً من "طريق العُنف والترهيب والحروب المُدمِّرة".

ولقد أدَّى ذلك إلى تطوُّر "كوريا الجنوبية"، الذي فاجأ العالم بنهاية القرن الماضي، وانعكس على تقدُّمها ورفاهية شعبها. ولقد قامت كوريا الجنوبية، نتيجةً لذلك أيضًا، "بمنازعة" اليابان وغيرها من دول كبرى في أهم المنتجات الاقتصادية والتَّقنية على مستوى العالم، ناهيك عن تزايد تطوُّر "قوَّة" كوريا الجنوبية "الناعمة" (10)، والذي ينعكس على مزيد من التفوُّق الاقتصادي والسياسي.

ونُشير هنا أيضًا إلى مثال آخر من القارة الأفريقية، على الارتباط الوثيق بين "ارتفاع مستوى الوَعْي" من جهة، و"تبني التوجُّه التنموي" من الجهة الأخرى. وفي ذلك نستحضر، تجربة دولة "بوروندي".

ولقد كانت "بوروندي"، حتى عام 1994 دولة فاشلة، عانت من التخلف، ناهيك عن المجازر والتصفيات العرقية التي قُضت على ما يقرب من خمس سكان البلاد. ونتيجةً لانتفاضة بوروندي من الموروثات الضارة والأوهام المرتبطة بالجهل، تم التركيز على "التنمية"، وأصبحت "بوروندي" على إثر ذلك، إحدى قصص النجاح الواعدة في مجالات السياحة والتَّقنية (11).

وتُقدِّم هذه النماذج، دلائل على ❖❖ إمكانية ❖❖ (أو عدم استحالة) لحاق دول عربية بركب التقدُّم، وُفرصة سانحة للتطبيق في العالم العربي.

❖❖ وتُوكِّد الجهود الحثيثة التي تبذلها دول عربية في مجالات ❖❖ التنمية الاقتصادية والمجتمعية ❖❖

على إمكانية لحاق دول عربية بركب التقدّم (12). ولقد شملت مجالات "دعم التنمية الاقتصادية والمجتمعية" التي حققت هذه الدول قدرًا من التقدّم فيها، بدرجات متفاوتة، ما يلي:

تطوير البنى التحتية، تنويع مصادر الدخل (من نشاطات الزراعة والصناعة والتعدين، وغيرها)، تطوير بيئة الأعمال، مكافحة الفساد، دعم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، دمج الاقتصاد غير الرسمي، رفع مستوى الشفافية والشمول المالي (13)، دعم فعالية واستقلال النظام القضائي، تفعيل دور الحكومة الإلكترونية، دعم التنمية الحضرية والقروية، تطوير أنظمة الرعاية الصحية والتعليم، دعم المجالات الثقافية، رفع المستوى المعيشي للفئات المحتاجة، دعم وتفعيل دور مؤسسات المجتمع المدني (NGOs)، تنمية قطاعي الطاقة والمياه وحماية مصادرها، تطوير قدرات الأمن الداخلي والخارجي، تطوير الاقتصاد الرقمي (14)، وغيرها (15).

وكما رأينا في حالات "النمور الآسيوية" وغيرها، فإن استمرار تميّز الدول في التطور في مجالات التنمية الاقتصادية والمجتمعية، يؤدي إلى تحقيق هذه الدول "لمعايير الانضمام" إلى مصاف "الدول المتقدمة"، ومن ثم الانضمام إليها (16).

في ضوء بيان العلاقة الوثيقة بين "التطور في مجالات التنمية الاقتصادية والمجتمعية" من جهة، و"تحقيق التقدّم" من جهة أخرى، قد يتساءل سائل: لماذا لا تُبادر جميع دولنا العربية إلى "التركيز على" خيار التطوير في مجالات التنمية الاقتصادية والمجتمعية، بما يحقق لها الترقّي على مؤشرات التقدّم العالمية، ورفاهية شعوبها؟

وفي ذلك، نشير أولاً: إلى ما ورد في القسم السابق، بخصوص ضرورة توفر "الوعي" الكافي لدى الدول لكي تتبنّى التنمية الاقتصادية والمجتمعية "كخيار استراتيجي"، وذلك عوضاً عن الانشغال بقضايا لا تخدم فرص تقدمها ورفاهية شعوبها. ويشمل ذلك: الدخول في خلافات أو عداوات أو معارك غير ضرورية؛ أو الاحتباس في مؤامرات أو نعرات أو أوهام لا ترتبط بالواقع؛ أو تبني مفاهيم عفى عليها الزمن.

أما السبب الثاني لعدم تبني جميع الدول العربية لخيار التنمية الاقتصادية والمجتمعية، فيعود إلى وقوف "الانغلاق الفكري"، أو "تسييس الدين" (أو كليهما) عائقاً أمام خيارات هذه الدول

للتنمية. وسيتم تناول هذا الأمر عند التطرق إلى "مؤشرات إحراز التقدم" في القسم التالي.

3- اتّضح "مؤشرات إحراز تقدّم" بالدول العربية

أدت تجارب الدول العربية خلال العقود السابقة إلى ظهور وعي لدى دول عربية أدّى إلى تبني هذه الدول لخيار التنمية الاقتصادية والمجتمعية كخيار استراتيجي. وكما سيتم بيانه لاحقاً، نتج عن تبني هذه الدول للتوجّه نحو التنمية ظهور نتائج إيجابية، تُشير إلى تقدّم هذه الدول على مؤشرات تطوّر عالمية.

بناءً عليه، تم اختيار "أخذ الدول العربية لخطوات قوية وسريعة نحو دعم التنمية الاقتصادية والمجتمعية" ليكون "المؤشر الأول" على إحراز الدول العربية للتقدم.

من الجانب الآخر، وكما تم بيانه في البابين الثالث والرابع، تُمثّل ظاهرة "الانغلاق الفكري" وما ينتج عنها من محاربة للأفكار الجديدة وتشدّد وعنف وخلافات طائفية من جانب؛ و "مؤثرات تسييس الدين" وما يرتبط بها من عدم استقرار سياسي وتشدّد وعنف وفساد وإضرار بالتنمية الاقتصادية والمجتمعية من جانب آخر، أخطر مُسبّبات "لنقاط ضعف" و"مُهدّدات لإمكانيات تقدم الدول العربية".

لذا، يُمثّل أخذ الدول العربية لخطوات جادة للحد من ظاهرتي الانغلاق الفكري وتسييس الدين، "مؤشرين" على فرص إحراز هذه الدول للتقدم.

بناءً على ما سبق، تم تحديد "ثلاثة مؤشرات" على مدى إحراز الدول العربية للتقدم، وهي كما يلي:

(1) أخذ خطوات قوية وسريعة نحو دعم التنمية الاقتصادية والمجتمعية.

(2) تبني سياسات جادة تجاه الحد من الانغلاق الفكري.

(3) قطع شوط أكبر في الحد من مؤثرات تسييس الدين.

وُتمثّل هذه المؤشرات "ترجمة عملية" لنتائج تجارب مرّت بها دول عربية خلال السنوات القليلة الماضية، حقّقت على إثرها قدرًا من التقدّم، والذي انعكس أيضًا على ترقّي هذه الدول على

"مؤشرات تطوّر عالمية" (17).

وكما سبقَت الإشارة، فقد سبقَ لأوروبا المرور بمسار مجالات هذه المؤشرات، وحققت على إثره قفزات كبرى. وفي ذلك نُشير إلى أن تركيز أوروبا على دعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية (المؤشر الأول)، بعد التخلُّص من مؤثرات الانغلاق الفكري و تسييس الدين (المؤشرين الثاني والثالث)، أدّى إلى تقدُّم أوروبا، الأمر الذي يُؤكد على العلاقة الوثيقة بين هذه المؤشرات، وانعكاس تحقيقها على إحراز تقدم.

ويُمثّل تحديد "مؤشرات إحراز تقدُّم" بالدول العربية، فرصة سانحة لدعم تقدُّم هذه الدول؛ ذلك أنه يوفّر إطارًا لخطوات عملية يُمكن من خلال اتباعها إحراز تقدُّم. وسيتم التطرق إلى هذه الخطوات في القسم (ب) من هذا الباب، عند التطرُّق إلى "مقترحات" لتحقيق تقدُّم بالعالم العربي.

4- تحديد "قاطرة تقدُّم" الدول العربية

بالتوصُّل إلى "مؤشرات على إحراز دول عربية للتقدم"، ننتقل إلى عنصر آخر يُشكّل مُمكنًا رئيسًا لإحداث تقدُّم بالدول العربية. وفي ذلك نشير إلى مجال تطوير الاقتصاد الرقمي (18)، والذي تم إيراده في البند (2) أعلاه، كأحد مجالات التطوير بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية الضرورية للتطور.

وترجع أهمية تطوير "الاقتصاد الرقمي"، إلى دوره في تسريع عملية اللحاق بالدول المتقدمة، الأمر الذي يُؤهلُه لأن يكون قاطرة للتقدم (19).

ويُمثّل التطوير في مجال "الاقتصاد الرقمي" فرصة سانحة، يُمكن من خلالها تحقيق تقدُّم بدول العالم العربي، في فترة قد لا تكون بعيدة، وذلك كما سيتم بيانه في القسم (ب) من هذا الباب. وقبل التطرُّق إلى أهمية تطوير الاقتصاد الرقمي كقاطرة للتقدم، يجدر هنا التأكيد على أن هذه الأهمية الخاصة لتطوير "الاقتصاد الرقمي"، لا تنتقص من أهمية إحراز تقدُّم على كلٍّ من مؤشرات التقدم الثلاثة.

وفي ذلك نُشير إلى أن "تطوير الاقتصاد الرقمي" لا يُعني عن التطور في مجالات التنمية الاقتصادية والمجتمعية الأخرى، المُتمثلة في المؤشر الأول؛ ذلك أنه لا يُمكن، بأي حال من الأحوال، تجاهل أهمية "التنمية الصناعية التقليدية"، والتي تُمثّل أحد أهم مقومات الأمن الاقتصادي للدول، من حيث كونها مُشغلاً رئيساً للعمالة، ومصدرًا للعمّلات الأجنبية، وداعمًا للاكتفاء الذاتي وتحسين الميزان التجاري، وغير ذلك. وينطبق ذلك أيضًا على "التنمية الزراعية"، وغيرها من قطاعات التنمية الحيوية الأخرى.

إلا أنه تجدر الإشارة هنا أيضًا، إلى أن "تطوير الاقتصاد الرقمي" يُساهم أيضًا في إحراز تقدّم في كلٍ من مجالات التنمية الاقتصادية والمجتمعية الأخرى التي يتضمنها "المؤشر الأول"؛ ذلك أن الاقتصاد الرقمي "يدعم فعالية وتنظيم جميع الأنشطة الاقتصادية والمجتمعية"، ويرفع من مستوى "رفاهية المجتمع" بشكلٍ عام.

من الجانب الآخر، لا يَنقُص "تطوير الاقتصاد الرقمي" أيضًا من أهمية تحقيق تقدّم في المؤشرين: الثاني والثالث من مؤشرات إحراز تقدّم؛ ذلك أن عدم إحراز تقدم في مجال المؤشر الثاني، المرتبط "بالحد من الانغلاق الفكري"، يضرُّ بفرص الابتكار والإبداع الضرورية لتحقيق تفوق تنموي وتقني. كما أن عدم الحد من "مؤثرات تسييس الدين" (المؤشر الثالث)، يُؤدّي إلى حالة عدم استقرار وأثار أخرى، تحدّ من فرص إيجاد بيئة ملائمة لإحداث تنمية اقتصادية ومجتمعية.

لذا، فإن تحقيق التقدّم في عالَمنا العربي، يتطلّب الترقّي في كلٍّ من "المؤشرات الثلاثة"، مع تركيز خاص على "تطوير الاقتصاد الرقمي"، كقاطرة يتم من خلالها "تسريع" وتيرة هذا التقدّم.

وعودًا إلى أهمية "تطوير الاقتصاد الرقمي كقاطرة للتقدم"، نُشير إلى أن انتقال دول مثل: "تايبوان" و"هونج كونج" و"كوريا الجنوبية" و"سنغافورة" إلى مصاف الدول المتقدمة، خلال فترة

لم تتعد ثلاثة عقود، من خلال التركيز على التطوير في مجالات التقنية المتقدمة، يُؤكّد على أهمية تطوير الاقتصاد الرقمي في "تسريع" عملية اللحاق بالدول المتقدمة.

ومما يؤكد أيضًا على أهمية تطوير الاقتصاد الرقمي في "تسريع" عملية التقدم، تزايد اعتماد دول كبرى على التطوير في مجالات التقنية المتقدمة لدعم استمرار تقدمها.

وفي ذلك نُشير، على سبيل المثال، إلى أن "الاقتصاد الرقمي" يمثل ما يُقارب 40% من الناتج المحلي الإجمالي في الصين. وينمو هذا القطاع بمعدل أعلى بثلاثة أضعاف من "الاقتصاد الصناعي التقليدي"، وذلك وفقًا للبيانات الرسمية الصادرة عن أكاديمية الصين للمعلومات.

وتُخطّط الصين لأن يُمثّل "الاقتصاد الرقمي" نحو نصف ناتجها المحلي الإجمالي بحلول عام 2027 (20)، وبحيث يقود "الاقتصاد الرقمي" قاطرة التقدم الصيني.

من الجانب الآخر، لا تقتصر أهمية تطوير الاقتصاد الرقمي على كونه يُمثّل قاطرة للتقدم، بل أصبح التطوير في مجالات التقنيات المتقدمة يُمثّل أيضًا "عُنصرًا أساسيًا في الحد من المزيد من

التخلف".

وفي ذلك تقول إيزابيل دورانت -الأمين العام بالإنابة لمنظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (أونكتاد)، في تقرير المنظمة لعام 2021: "إن من المهم ألا تُفوّت الدول النامية موجة التقنيات

المتقدمة"، وإلا فإن ذلك سيزيد من تعميق أوجه عدم المساواة" (21).

وتتضمّن مظاهر عدم المساواة التي أشارت إليها السيدة دورانت "توسيع الهوة بين الدول

المتقدمة والنامية"، للمستوى الذي لا تقدر فيه الدول النامية على الحصول على قدرٍ كافٍ من المنتجات والخدمات الاجتماعية، والمنافع العامة الأساسية، بما في ذلك: التعليم، والصحة، والاتصالات، والكهرباء.

وتقول شاميك سيريومان -مديرة شعبة التقنية والخدمات اللوجستية بمنظمة الأمم المتحدة للتجارة

والتنمية، في ذلك: "ستحتاج الحكومات والجهات الإنمائية الأخرى الفاعلة إلى الاستعداد

السريع ❶❷ ، حيث لا يُمكن للدول النامية، ولا سيما الأقل نموًا، أن تُفوّت هذه الموجة الجديدة من التغيّر التقني المتسارع" (22).

لذا، فإن التوجّه نحو ❶❷ تطوير الاقتصاد الرقمي ❶❷ بدولنا العربية ليس مُجرّد ❶❷ خيار يحسن اتباعه ❶❷ ، وإنما هو أمرٌ ❶❷ يتحتّم الأخذُ به ❶❷ في أسرع وقت، وذلك لمنع حدوث المزيد من التخلف، ناهيك عن تحقيق التقدم المأمول.

وتقودنا هذه الحقيقة إلى تساؤل عن ❶❷ مدى إمكانية تحقيق دول عربية لتقدم تقني ❶❷ . وفي ذلك نُشير إلى أن "طبيعة الاقتصاد الرقمي الخاصة"، من حيث إن جزءًا كبيرًا من وظائفه وتطبيقاته يقع في ❶❷ العالم الافتراضي ❶❷ ، توفر "فرصًا خاصة" للدخول في هذا المجال، دون حاجة ماسة إلى إنشاء قواعد صناعية وبنية تحتية محلية متكاملة، أسوةً "بالاقتصاد الصناعي التقليدي".

ولقد ظهرت مؤسسات تقنية بجهود شباب لم يزد عُمر بعضهم عن 25 عامًا خلال العقود القليلة الماضية، وبتجهيزات محدودة في حينه. ولقد أصبحت هذه المؤسسات الآن إمبراطوريات اقتصادية يفوق حجمها اقتصادات دول، الأمر الذي يؤكد على توفر فرص التطوير في مجالات الاقتصاد الرقمي بشكل أكبر من فرص التطوير في "الاقتصاد الصناعي التقليدي".

وما تزال تطالعنا، بشكل مستمر، أخبار إنشاء كيانات اقتصادية كبرى في مجالات الاقتصاد الرقمي، وذلك خلال فترات وجيزة قد لا تتجاوز عددًا من الشهور (23).

لذا، يُمكن البدء الفعلي في دخول دول عربية في مجالات ❶❷ تقنية الاقتصاد الرقمي ❶❷ من خلال إيجاد بيئة مُحفّزة للإبداع والابتكار، والاستفادة من أفضل الكفاءات المتوفرة محليًا. كما يمكن دعم ذلك بتعاون مع مراكز بحوث وشركات عالمية كبرى، والاستفادة من برامج الدعم الاقتصادي الدولية، وذلك إلى حين اكتمال البنية التحتية الرقمية محليًا.

وتتزايد فرص الدخول في مجالات تقنية الاقتصاد الرقمي بتوفر رؤوس الأموال المقترن بالتخطيط السليم، الأمر الذي يقع ضمن استطاعة عدد من الدول العربية.

وهناك بوادر مُشجّعة تُشير إلى قدرة دول عربية على الدخول في مجالات التقنيات المتقدمة، ستتم الإشارة إليها في القسم (ب) التالي من هذا الباب.

وفي هذا الصدد، نُشير إلى ما ورد في كتاب "صُعود الشركات الناشئة: ثورة ريادة الأعمال تعيد إحياء الشرق الأوسط" (24)، والذي يُؤكِّد على أن منطقتنا تعيش "حُقبَة ذهبية" للمشروعات والأعمال التَّقنيَّة، وأنه يُمكن لدولها أن تُحدِث فرقاً في هذا المجال (25).

5- ظُهور نماذج لِقِادات عربيَّة ذات توجُّه تنموي مُتميِّز

لا يُمكن تحقيق نتائج تنموية "نوعيَّة" دون وجود قيادة قويَّة، جادة ومُتميِّزة، تُوجِّه هذه التنمية، وتكون "قُدوة لمجتمعها" نحو التغيُّر. ولا شك في أن ما نشهده حالياً بدول عربيَّة لا يخرج عن هذه القاعدة.

وفي ذلك نُشير إلى تحوُّل دول عربيَّة، بدعم من جُهود ورؤية قيادات مُتميِّزة، إلى "ورش عمل تطوير"، محموم ومتسارع، أدَّى إلى تحقيق تقدُّم ملموس خلال فترة وجيزة.

ولقد أُتحت لي فرصة التعرُّف على جوانب من جهود ورؤية قيادة عربيَّة مُتميزة بإحدى هذه الدول، من واقع تجربة، والتي أكَّدت لي على مدى جِدِّية وفعاليَّة هذه الجهود والرؤية من خلفها (26).

وفي ضوء ما ورد في التقديم لهذا الكتاب، فإننا لن نذكر هنا أسماء قيادات سياسيَّة عربيَّة تُحقِّق حالياً نقلات نوعيَّة. ونُشير عوضاً عن ذلك إلى نماذج قيادة وتطوير من خارج العالم العربي. ونترك للقراء الكرام التعرُّف على القيادات العربيَّة التي تعمل حالياً على إحداث تقدُّم نوعي مُماثل في مجتمعاتها.

ونُشير هنا إلى دول مثل: "اليابان" و"كوريا الجنوبيَّة" و"سنغافورة"، والتي حقَّقت قفزات تنموية نوعيَّة من خلال تدخُّلات حكوميَّة مُنظمة، بقيادات مُتميِّزة، أصبحت نماذج يُحتذى بها. ويُمثِّل "لي كوان يو" -مؤسس "سنغافورة" الحديثة، وأول رئيس وزراء بعد الاستقلال، على سبيل المثال، أحد نماذج القيادات الشهيرة في هذا الصدد؛ حيث قاد إلى تحقيق "المعجزة التنموية في سنغافورة" (27).

ويوفِّر ظهور نتائج رُوى وجهود قيادات مُتميِّزة على أرض الواقع في عالمنا العربي، فرصة

هامَّة لتقديم "أمثلة عمليَّة" لمستوى الإنجازات التي يُمكن أن تُحقِّقها قيادات عربيَّة نحو إحراز نقلات حضاريَّة تستحقُّ شعوبه.

ويؤدّي ظهور هذه النماذج للقيادة والتنمية أيضًا، إلى جعل "التعاون والتنافس الإيجابي" بين الدول العربية لتحقيق مستويات أعلى من التنمية، "المجال السائد"، بدلاً من الانشغال بنزاعات على قضايا "غير بناءة".

6- توفر الموارد البشرية الشابة

إضافةً إلى مُمكّنات دعم فرص تقدم الدول العربية أعلاه، يُشكّل شباب العالم العربي مُمكّنًا هامًا آخر، يدعم التقدّم. ويُمثّل الشباب غالبية السُكّان في العالم العربي، ناهيك عن حصول العديد منهم على مؤهلات عالمية، الأمر الذي يجعل العنصر البشري "نقطة قوة" تدعم إمكانية تقدّم العالم العربي.

ولقد كان توفرُ الموارد البشرية الشابة، وقود التنمية الذي اعتمدت عليه دول مثل: "الصين" و"اليابان وكوريا الجنوبية"، ودول أوروبية، في التحول إلى دول متقدمة خلال القرن الماضي. وتجدرُ الإشارة في هذا الصدد إلى أن العديد من الدول المتقدمة تواجه حاليًا تحديات من حيث انخفاض أعداد العمالة الشابة، ناهيك عن ارتفاع معدّل الأجور نتيجة للتقدّم الاقتصادي الذي حقّقته هذه الدول.

وتُعاني "الصين"، على سبيل المثال، من شيخوخة سُكّانية متسارعة، إذ سيرتفع عدد السكان الذين تزيد أعمارهم عن 65 عامًا من 200 إلى 400 مليون نسمة، وعدد السكان الذين يبلغون من العمر 85 عامًا فما فوق من أقل من 50 مليونًا اليوم إلى أكثر من 150 مليون نسمة، وذلك بحلول عام 2049 (28).

وبالإضافة إلى اعتماد الدول المتقدمة على إحلال الروبوتات والذكاء الاصطناعي محل العمالة بهدف التخفيف من مشكلة عدم توفرُ الموارد البشرية الشابة لديها، فإن كثيرًا من الدول المتقدمة، في أوروبا وأمريكا الشمالية، تعمل أيضًا على استقطاب الكفاءات الشابة إليها من الدول النامية. وتستقطب هذه الدول شبابًا مثل شبابنا، بهدف دعم استمرار تفوّقها. ولقد هاجر الكثير من شبابنا إلى هذه الدول، وينتظر الباقون دورهم. ويزيد تأثير قوى الطرد الاقتصادية والثقافية بمجتمعاتنا من جدّة هذه الظاهرة.

وفي حال الفشل في الحد من ظاهرة هجرة الشباب العربي إلى الخارج، سيكون هؤلاء الشباب عُنصرًا إضافيًا في توسيع الهوة بيننا وبين الدول المتقدمة التي سيهاجرون إليها.

ومما يبعث على بعض الاطمئنان، ظهور نتائج استطلاع، مفاجئة، تُشير إلى ارتفاع "مستوى تقاؤل" الشباب في العالم العربي بالمستقبل، وانخفاض "معدلات الرغبة في الهجرة" بمعدل 10% في عام 2021 (29).

من الجانب الآخر، هناك دلائل تُشير إلى تميُّز قدرات الشباب في العالم العربي في مجالات التقنية. وفي هذا الصدد، يرى "ماتينو واكد" - المدير العام لشركة "أوبر" في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا - أن شباب منطقة الشرق الأوسط مُتمرسون في استخدام التقنية، الأمر الذي يوفرُ مقوِّمات لحدوث مزيد من الإبداع في منطقتنا (30).

ويؤكد ذلك مُجددًا على أهمية دور الشباب في التنمية، وفي هذه المرحلة من مراحل تطوُّر العالم العربي بشكلٍ خاص، وذلك لتفوقهم في مجال "تقنية المعلومات"، الذي يُمثِّل حاليًا "شريان" تقدُّم الدول.

7- ظهور بوادر تفوق كشفت عنها "جائحة كورونا"

كشفت "جائحة كورونا" عن جوانب من "عدم التنظيم أو الاستعداد للطوارئ" بدول كبرى، وذلك بالقدر الذي أدهش الكثير من المراقبين، وخصوصًا بالدول النامية التي عادةً ما تنتظر إلى الدول الكبرى "ك نماذج تطوُّر لا يُمكن الوصول إلى مستواها"، في أيِّ من المجالات.

وإضافةً إلى تأكيد هذه الظاهرة على أهمية تحديّ الفرضيات عن "أسطورة كمال الدول المتقدمة"، فإنها أيضًا تُؤكِّد على إمكانية تفوق بعض الدول النامية على الدول المتقدمة، على الأقل في بعض المجالات.

ولقد كانت بعض الدول العربية ضمن الدول التي تمَّ فيها الحد من تأثير جائحة كورونا، الصحي والاقتصادي، بشكلٍ فاقَ مُستواه ما تم تحقيقه في بعض دول العالم الكبرى.

ونُشير في هذا الصدد إلى دول عربية حافظت على استقرار اقتصادها بشكلٍ مُتميّز خلال أزمة كورونا، بالرغم مما صاحب الجائحة من تحديات كبرى (31). كما حققت دولة عربية نموًا اقتصاديًا نادرًا، تجاوز 3% خلال ذروة جائحة كورونا، عام 2020، مقابل مُعدَّل انخفاض في النمو وصل إلى أكثر من 6% في دول كبرى في هذه الفترة (32).

ويُظهر هذا الإنجاز "نقاط قوة" تتمتع بها دول عربية، تُؤكِّد على إمكانية استغلال مثلها بدول عربية أخرى، في حال تبنيها للتوجُّه الداعم لذلك. وغني عن القول هنا أيضًا، أن تحقيق دول

عربية لنتائج مُتقدِّمة على المستوى العالمي(33)،
لا يتأتَّى دون تدخُّل حُكومي مُنظَّم بقيادة مُتميِّزة.

8- نهاية عصر السَّيطرة الكاملة على تدفُّق المعلومات

إن انفتاح قنوات المعرفة على مستوى العالم، لم يجعل من المُمكن السَّيطرة الكاملة على العُقول من خلال أساليب الحماية والمنع والانغلاق التقليدية، التي رسَّخت لمظاهر تخلفنا. لذا، فإن خيارنا ليست بين السَّماح للانفتاح على العلوم والثقافات العالمية من عدمه؛ ذلك أن الانفتاح يُمثِّل واقعا لا يُمكن تقاديه.

وتمثِّل هذه الظاهرة "فرصة ذهبية" لانعتاق العالم العربي من الانغلاق الفكري. كما تضعنا هذه الفرصة أمام "تحدِّ تاريخي"؛ إما أن نأخذ زمام المبادرة بأيدينا لدعم إمكانيات التفكير الحر والإبداع وتحقيق التقدم(34)، أو أن نستمر في توجُّه الانغلاق، "غير المُجدي" ، الذي لا يُؤدِّي إلا إلى الحد من فُرص الاستِفادة من الأفكار والثقافات التي يغتنمها العالم من حولنا(35).

ولقد سبق أن واجهت دول، منها دول إسلامية، مثل: سنغافورة(36)، وماليزيا(37)، تحديات في سبيل تحقيق الانفتاح على العلوم والثقافات العالمية اللازم للتطور من جهة، والحفاظ على ثقافتها من جهة أخرى، وتمكَّنت من إحراز قدر من التوازن المناسب لها.

ويُمكن للدول العربية تحقيق "التوازن المطلوب" بين الانفتاح على العلوم والثقافات العالمية اللازم للتطور، والحفاظ على ثقافتها، وذلك حسب ظروفها واحتياجاتها. وسيتم تناول سُبُل تحقيق ذلك، وأهداف أخرى، ضمن "خطوات تحقيق التقدُّم" التي يتم تناولها في القسم (ب)، التالي.

ب- خطوات على طريق التقدُّم

في ضوء تناول "التحديات" التي تم إيرادها في الباب الرابع، و "المُمكنات" التي تم استعراضها في "القسم (أ) أعلاه"، واللَّتين مثَّلتا جانبي "نموذج التحليل الاستراتيجي الرباعي"، تم التوصل إلى "مقترحات" تستجيب للتحديات، وتستفيد من المُمكنات المتاحة. ويتم في البنود التالية بيان هذه المقترحات:

1- تفعيل "مؤشرات إحراز التقدُّم"

عند تناولنا "مؤشرات إحراز تقدُّم بالدول عربية" ، أشرنا إلى أن تحديد هذه المؤشرات

يُشكّل فُرصة سانحة لدعم تقدّم هذه الدول، وذلك من حيث إنه يوفرّ إطارًا لِخُطوات عملية يُمكن من خلال اتباعها إحراز تقدّمٍ .

في ضوء ذلك، يمكن استخدام مؤشرات إحراز التقدّم بالدول العربية كإطار عام لدعم إمكانيات تقدّم هذه الدول في مجالات حيوية ركّزت عليها هذه المؤشرات. وتأتي الأهمية الخاصة لمجالات هذه المؤشرات، من حيث إنها تشمل أهم مُمكنات إحداث تقدّم بالعالم العربي، وهو التركيز على التنمية الاقتصادية والمجتمعية. كما أن هذه المؤشرات تشمل التخلّص من أكبر تهديدين لفرص تحقيق تقدّم بالدول العربية، وهما: الانغلاق الفكري و تسييس الدين .

وفي هذا الصدد، نُشير إلى أننا لن نخوض في خُطط تحقيق تقدّم بالدول العربية في مجالات هذه المؤشرات؛ حيث إن لكل دولة قدراتها ومحدّداتها وخبراتها الخاصة في تحقيق ذلك.

ويتم عوضًا عن ذلك، التطرّق، في البنود التالية من هذا الباب، إلى عددٍ من الأولويات الضرورية لإحداث قفزة حضارية بدول العالم العربي، ضمن إطار هذه المؤشرات.

2- تغيير ما بأنفسنا من مظاهر "الانغلاق الفكري" (38)

يُمثّل ما أشرنا إليه من وعي عربي جديد، أهم مقوّمات التخلّص من "مُهدّدات تقدم الدول العربية"، التي ترتبط بظاهرتي الانغلاق الفكري و تسييس الدين، وما ينتج عنهما من مظاهر تشدّد، وعنف، وعدم استقرار سياسي، وإضرار بالتنمية الاقتصادية والمجتمعية، وغير ذلك.

وقد يكون التخلّص من الكثير من هذه المظاهر مسألة وقت، في حال استمرار تزايد رفض المجتمع العربي لهاتين الظاهرتين. إلا أنه يبقى هناك "التحدّي الأكبر"، والذي يتمثّل في أحد

مظاهر "الانغلاق الفكري" ، المبني على وهم "الخوف من الأفكار الجديدة التي قد تُؤدّي إلى انحسار الإسلام".

ويُمثّل استمرار بقاء هذا "الوهم" في مجتمعاتنا "آخر معاقل" التنظيمات والجماعات التي أسّست ورعت ظاهرة التطرّف؛ ذلك أن حُرّيّة الفكر وانتشار العلم والثّقافة والوعي يُمثّل "أكبر خطر" على وجود هذه الجماعات.

وتكمن خطورة هذا الوهم في تأثيره الضار على مستوى التطوّر العلمي والفكري للمجتمعات. وفي هذا الصدد، نذكر بما سبقّت الإشارة إليه في "الباب الرابع" بخصوص دور الانغلاق وعدم تطوير الفكر في انحسار الحضارة الإسلامية، والذي شملت بعض مظاهره: الانغلاق على التراث ومحاربة الأفكار الجديدة، وعدم احترام الآراء المخالفة للتوجّه السائد، والاكتفاء بتكرار أو شرح أو تلخيص ما جاء في العلوم السابقة، والانتقاص من قيمة المنهج العقلي، ومحاربة تعليم المرأة، وغير ذلك(39).

كما نذكر أيضًا بما حدث في أوروبا، خلال فترة القرون الوسطى، حيث سادت لدى هذه المجتمعات فكرة محاربة العلم والثقافة والأفكار الجديدة، بدعوى حماية الدين، وأسباب سياسية ضيقة من خلفها، والذي أدّى إلى تأخر هذه المجتمعات لقرون طويلة.

وكما سبقّت الإشارة، في الباب الثالث، فقد أدّى اعتناق أوروبا من هذا الأسلوب "الجمائي" وتبني التوجّه العلمي والانفتاح على ثقافات العالم إلى انتقال هذه الدول إلى "عصر النهضة، ومن ثمّ "عصر التنوير"، وما تبعه من ثورة صناعية، وما بعدها.

وقد يقول، في هذا الصدد، قائل: "إن الانفتاح الفكري الذي حدث في أوروبا بعد القرون الوسطى، قد أدّى، بالرغم مما نتج عنه من تطوّر، إلى تحوّل الأوروبيين بعيدًا عن الدين، الأمر الذي يجب أن نتفاداه؛ حمايةً للدين الإسلامي".

وهنا نُشير إلى ما تُؤكّد عليه الإحصائيات العالمية، من أن الإسلام يُمثّل أسرع الأديان انتشارًا في العالم. ويُتوقّع أن ينمو عدد المسلمين، حسب دراسات إحصائية عالمية، بنسبة 73% بين عامي 2010 و2050(40).

ويكفي ذلك، ودلائل أخرى(41)، مؤونة "إكراه الناس على أن يكونوا مؤمنين"(42)، ويضع

علينا مسؤولية كبرى نحو ^{❖❖} تمكين مجتمعاتنا من أن تكون بالمستوى الحضاري والفكري والثقافي الذي يليق بها ^{❖❖} .

وتشمل هذه المسؤولية: تَخْلِيص الأفراد والمجتمعات من أوهام تؤدي إلى التَشَدُّد، ومن مظاهر مجتمعية وموروثات ضارة؛ ورفع مستوى الوعي للحد من تَسْخِير أفراد المجتمع لخدمة أغراض ضَيِّفَة لِفَنَاءت تَسْيِس الدِّين؛ وفتح الأبواب المُعْلَقَة أمام عُلَمَانَا ومفكرينا لِتَقْدِيم طُرُوحَات مُتَوَازِنَة تَرْتَبِط بِالْعَصْر ولا تَتَعَارَض مع قِيَمِنَا الْأَصِيلَة.

وفي صَدَد تقديم طرُوحَات تَرْتَبِط بِالْعَصْر، نُشِير إلى أنه بالرغم من أهمية ما جاء به عُلَمَاء أَجْلَاء، على مَرَّ التاريخ الإسلامي، من مُسَاهَمَات في قضايا عديدة، فإنَّ ذلك لا يعفي العُلَمَاء المُعَاصِرِينَ من مسؤولية الإِدْلَاء بِدَلُوهِم لِتَقْد هذه الآراء نَقْدًا عِلْمِيًّا مُؤَصَّلًا، لا يَبْدَأُ بِالنَّيْجَة الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا السَّابِقُونَ "كَحَالَات مُسَلَم بِهَا"، بل كَفَهَم بَشْرِي "قَابِلٌ لِإِعَادَة الدِّرَاسَة فِي ضَوْء مُسْتَجَدَّاتِ الْعَصْرِ وَمَا أُتِيحَ لِلْعُلَمَاءِ الْمُعَاصِرِينَ مِنْ تَقْنِيَّاتِ الْبَحْثِ وَالْمَعَارِفِ الْحَدِيثَةِ".

وإذا كانت هناك حاجة إلى تجديد هذا الدين كُلِّ مائة عام (43)، وُحْدُوثِ التَّجْدِيدِ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى، فكيف يكون الحال اليوم ونحن نقطع في عشر سنوات ما يعادل أضعافها من السنين في عصور سابقة، من حيث حجم التغيير المادي والاجتماعي والثقافي.

وتأتي الأهمية القصوى للتجديد الآن؛ نظرًا لحاجة الدول العربية ^{❖❖} الحتمية ^{❖❖} للتطور التقني والثقافي، تقاديًا للانزلاق إلى مستويات جديدة من التخلف. ناهيك عن تحقيق القفزة الحضارية التي طال انتظارها.

ويتطلب ذلك فتح الباب واسعًا أمام سُبُلِ الإِبْدَاعِ وَالِابْتِكَارِ، مِنْ خِلَالِ نَبْذِ التَّوَجُّهَاتِ الْمُتَطَرِّفَةِ الَّتِي تَهْدَفُ إِلَى تَعْطِيلِ الْعَقْلِ وَالتَّفْكِيرِ الْحُرِّ، وَلا تَرْتَبِطُ بِمُسْتَجَدَّاتِ الْعَصْرِ.

وفي ذلك يقول الدكتور شوقي علام -مفتي جمهورية مصر العربية، ورئيس الأمانة العامة لدور وهيئات الإفتاء في العالم: "إن ما يمرُّ به عالمنا العربي والإسلامي من شيوع التطرف الديني أو الطائفي أو المذهبي الذي يركز على أفكارٍ تخنق الإبداع، وتحد من حُرِيَة الْفِكْرِ وَالتَّعْبِيرِ، يجعل من تجديد الخطاب الديني ضرورةً حياتية وحتمية حضارية". ويُضيف: "إن قضية التجديد، قبل أن

تكون قضية حياتية ضرورية، هي قضية شرعية" (44).

أخيراً وليس آخراً، فإنّ الانفتاح الثقافي والفكري لا يعني بالضرورة "ترك الحبل على الغارب"، حيث يُمكن وضع ضوابط قانونية مستقلة، على أُسس مُستتيرة، تستجيب لمتطلّبات العصر، وتجد من الإضرار بالفرد أو المجتمع، دون تضيق أو وصاية.

ويُمثّل التخلُّص من فكرة "الخوف من الأفكار الجديدة"، ومن ثمّ دعم "التجديد"، خطوة ذات "أولوية" قصوى، يجدر اتخاذها لتحقيق "قفزة حضارية" بدول العالم العربي (والإسلامي). ويتم في البند التالي تناول خطوة أخرى تُمثّل "أولوية" قصوى ذات علاقة.

3- دعم مجالات الابتكار والإبداع العلمي والثقافي

أشرنا عند تناول مُمكنات إحداه تقدم بالعالم العربي، إلى الارتباط الوثيق بين "التقدم" من جهة، و"التطوُّر العلمي والتكنولوجي" من الجهة الأخرى. وتم بناءً على ذلك التوصل إلى أن دعم الابتكار والإبداع يُمثّل "أولوية قصوى" لتحقيق النهضة المنشودة.

ولقد كان من مظاهر "الوعي العربي الجديد"، أن أدركت بعض مجتمعاتنا أهمية "دعم الابتكار والإبداع". وتبدّل دول عربية الجُهد والمال لدعم هذا المجال (45). إلا أن مجال دعم الابتكار والإبداع العلمي والثقافي لا يزال يشكو من عدم التفعيل الكافي لإحداث "قفزة حضارية" (46)، وذلك لأسباب تختلف من دولة لأخرى، يرجع جزء كبير منها إلى "بقايا" مظاهر "الانغلاق الفكري" السابق ذكرها.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض القضايا ذات العلاقة بدعم الابتكار والإبداع، والتي تعمل دول عربية على تمهيتها، ولم تظهر، للأسف الشديد، آثارها بالشكل الكافي على أرض الواقع.

ونُشير هنا إلى الأهمية القصوى "لتطوير الأنظمة التعليمية"، بحيث تخاطب العقول، بدلاً من أسلوب الحفظ والتلقين الذي يُرسخ لثقافة فترات انحسار الحضارة. هذا بالإضافة إلى تقديم المزيد من الدعم للمؤسسات الثقافية ومراكز التفكير والابتكار والإبداع، وفتح قنوات الحوار وتبادل الأفكار وتطويرها بما يدعم تقدمنا العلمي والثقافي.

كما نُشير أيضًا إلى "العنصر التطبيقي للعلوم"، وتحويل الأفكار النظرية إلى منتجات صناعية وخدمية وثقافية وتجارية، يدعم دخلها المبتكرين ومؤسساتهم، عوضًا عن استمرار اعتمادهم على مخصّصات مالية من الدولة أو من المحسنين.

ولقد خرجت بحوث، ومشاريع، وابتكارات كبرى من معامل وقاعات مُحاضرات جامعات غربية ومراكز أبحاث إلى مجالات الثقافة والصناعة والتجارة، بُنيت عليها شركات عالمية كبرى.

ويتطلّب تحويل الأفكار النظرية إلى منتجات صناعية وخدمية وثقافية وتجارية، ضمن أمور أخرى، المزيد من الدعم لمجالات البحوث التطبيقية، وتطوير أنظمة ومراكز براءات الاختراع، وتشجيع الابتكار، والتطبيق الجاد لقوانين حماية الحقوق الفكرية.

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أهمية الاستفادة من ظاهرة تحقيق أبنائنا وبناتنا في العالم العربي والمهجر لنتائج مدهشة في مجالات علمية وفنية وثقافية ومهنية، والتي تطالعا الأبناء عنها من حين لآخر.

وتتطلّب الاستفادة من هذه الظاهرة مزيدًا من الدعم نحو "مأسستها"؛ وذلك بحصر هذه الإنجازات، واختيار الأفضل منها، والبحث عن وسائل إيجاد المزيد، وتحويلها إلى المجالات التطبيقية، التجارية والصناعية والثقافية.

من الجانب الآخر، فإن التأكيد على أهمية الابتكار في مجالات التطوير العلمي والتقني، كعنصر هام من عناصر التنمية الاقتصادية والاجتماعية، "لا ينتقص بأي حال من الأحوال من أهمية الابتكار في مجالات "الثقافة والفنون" بمختلف مشاربها".

ذلك أنها، بالإضافة إلى أهميتها في دعم المستوى الثقافي للمجتمع، تُمثّل "القوة الناعمة" الضرورية لدعم مجالات التقدم التقني والاقتصادي والسياسي.

ولقد كان من إحدى سمات "الوعي العربي الجديد" أيضًا، أن أدركت دول عربية أهمية تطوير الثقافة والفنون كعنصر أساس في دعم تطور مجتمعاتها.

ليس ذلك فحسب، بل إن هذه الدول العربية حققت، خلال عام 2021، تقدّمًا في "مؤشر القوة

الناعمة" العالمي بنسب أعلى من التي حققتها بعض الدول الكبرى، التي تعاني حاليًا من انحسار

في قوتها الناعمة(47).

4- تبني سياسة "القفزات السريعة"

أشرنا عند تناولنا لمُمكّنات إحداث تقدّم بالعالم العربي إلى أهمية تطوير الاقتصاد الرقمي في تسريع عملية اللحاق بالدول المتقدمة، الأمر الذي يؤهله لأن يكون قاطرة للتقدّم .

ونشير هنا أيضًا إلى أن تبني الأسلوب التقليدي للحاق بالدول المتقدمة يستغرق وقتًا طويلًا لا يتوفّر لنا حاليًا. كما أنّ التطوّر السريع في مجالات العلوم والتقنية يُؤدّي إلى تغيير سريع فيها، الأمر الذي يجعل أسلوب "التطوّر التدريجي"، من القاع إلى القمة، غير مُجدٍ، من حيث إنه يُبقينا بعيدًا عن آخر التطوّرات التّقنية، والتي تُمثّل الفرق بين الدول المتقدمة والمتخلفة.

وكما سبقت الإشارة أيضًا، تُمثّل الطبيعة الخاصة للاقتصاد الرقمي ، من حيث وقوع الجزء الأكبر من وظائفه وتطبيقاته في العالم الافتراضي ، فرصة لتحقيق تقدّم سريع، دون الحاجة إلى الانتظار إلى حين اكتمال البنية التحتية التي تتطلبها التنمية الصناعية التقليدية. ويتمثّل تفعيل هذه الطبيعة الخاصة للاقتصاد الرقمي في إمكانية تبني الدول العربية لسياسة القفزات السريعة (Leapfrogging). ويتحقّق ذلك من خلال الدخول في مجالات التقنية والابتكار في "أعلى مستوياتها".

ولقد بدأت دول عربية بالفعل في اتباع سياسة "القفزات السريعة" وتحقيق تقدّم فيه، الأمر الذي يُوكّد على إمكانية تحقيق المزيد في هذا المجال.

ونشير هنا، على سبيل المثال، إلى دخول دولة عربية، بحصّة مؤثّرة، في شراكات مع أحد أكبر صناديق الاستثمار في مجالات التقنية الحديثة على المستوى العالمي(48).

ويُحقّق هذا الأسلوب من الاستثمار "تواجدًا مؤثّرًا" في أعلى مواقع اتخاذ قرارات اختيار ودعم وتوجيه التنمية في مجالات التقنية على مستوى العالم. كما يدعم ذلك عملية "توطين التقنية" و"التقدّم على مؤشرات التنافسية الدولية"(49).

كما دخلت دول عربية في مجالات تصنيع الأجهزة والمعدات ذات التقنية المتقدمة(50)، وفي مجال الفضاء(51)، ومجالات عمل تطبيقات إلكترونية(52). هذا إضافة إلى دخول مجالات جديدة لتقنية "الطاقة النظيفة" بمستوى ريادي عالمي لم يُطرق في دول مُتقدِّمة(53)، وغير ذلك من الجهود الشجاعة والجادة.

ويشمل تبنّي سياسة "القفزات السريعة" أيضًا، ^{¶¶} اختيار أعلى مستويات التقنية والذكاء الاصطناعي عند إنشاء مشاريع البنية التحتية والتطوير المجتمعي ^{¶¶}، وذلك بغرض "توطين هذه التقنيات"، ودعم فرص رفع مستوى "المُكوّن المحلي" فيها.

ولقد بدأت دول عربية أيضًا في تطبيق هذا التوجُّه في عدد من المجالات، وحقَّقت نتائج نوعية، الأمر الذي يؤكد أيضًا على إمكانية تحقيق المزيد لدعم فرص التقدم.

وشملت مجالات اختيار أعلى مستويات التقنية والذكاء الاصطناعي في مشاريع البنية التحتية والتطوير المجتمعي، كلاً من: مجال المواصلات(54)، والزراعة(55)، والمُدن الذكية(56)، والطاقة المتجددة(57)، وقطاع المال والأعمال(58)، والحكومة الإلكترونية(59)، وغيرها.

ولا يفتقر العالم العربي إلى القُدرة على تحقيق المزيد من القفزات التنموية في هذه المجالات وغيرها. ويتطلَّب ذلك دعمًا إضافيًا لسُبل توفير البيئة المناسبة للابتكار، من تعليم، وتدريب، ومراكز أبحاث محلية، واستفادة من المراكز العالمية المتخصصة.

هذا إضافة إلى توفير موارد التمويل، وبالأخص "التمويل المُخاطر"، واستقطاب رؤوس الأموال والشركات العالمية، ودعم المنشآت الصغيرة والمتوسطة، وجذب المغتربين ذوي الخبرة؛ وذلك لإنشاء كيانات قادرة على المُنافسة عالميًا.

وفي هذا الصدد، يُشير تقرير منظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، للتقنية والابتكار، لعام 2021، إلى أن استعداد الدول للحصول على التقنيات المتقدمة للحاق بركب التقدُّم، يقوم على خمس لبنات، هي: نشر تقنية المعلومات والاتِّصالات، وتنمية المهارات، ودعم البحث والتطوير، وتطوير نشاط الصناعة، والحصول على التمويل(60).

أخيرًا، يتم في البند التالي تناول موضوع على قدر كبير من الأهمية، يرتبط بالاستفادة من تقدُّم دول عربية في "نقل هذه التجارب إلى دول أخرى"، وذلك أسوةً بما تمَّ تحقيقه في مجتمعات أخرى.

5- نشر "ظاهرة التقدم"

تشهد دول عربية حاليًا "مخاضًا عسيرًا" للتخلص من بعض الأوهام والمظاهر المجتمعية الضارة التي سبقت الإشارة إليها، والتي حدت من قدرتها على أخذ خطوات فاعلة نحو التطور في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية(61).

ومما يُثْلج الصَّدر، تَوَجُّه دول عربية حَقَّقَت قَدْرًا من التَّقدُّم نحو مساعدة هذه الدول. ولعل هذا التَّعاون يُكوِّن نِوَاةً لِتَكَاتِلَاتٍ أَكْبَرَ تَدْعَمُ مِجَالَاتِ التَّنْمِيَةِ المِجْتَمَعِيَّةِ وَالاِقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ لِهَذِهِ الدُّوَلِ، نَاهِيكَ عَنِ دَعْمِ إِمْكَانِيَّةِ تَحْقِيقِ حُلْمِ "تَضَامُنٍ" ظَلَّ حَبِيسَ دَوَافِعِ خَاطِئَةٍ، وَمَزَايِدَاتِ(62)، وَشِعَارَاتِ "سَعْبَوِيَّةٍ" بُنِيَتْ عَلَى أَوْهَامٍ، خِلَالَ القَرْنِ المَاضِي(63).

وفي صدد "نشر ظاهرة التقدم على مستوى العالم العربي"، نُشير إلى أنَّ تقدُّم دول "النمو الآسيوية" بنهاية القرن الماضي، أدَّى إلى دعم نمو اقتصادات دول آسيوية أخرى. ولقد نتج عن ذلك، لحاق "دول آسيوية أخرى" بقطار التقدُّم. وهناك الكثير مما يُمكن أن تتعلمه الدول العربية من هذه التجربة.

أخيرًا، يأتي التعاون بين الدول العربية على أسس واقعية، وعن إدراكٍ لضرورة تحقيق "مصالح اقتصادية وسياسية وثقافية مشتركة"، كنموذج آخر لمظاهر "الوعي العربي الجديد".

1() ونُذَكِّرُ هُنَا بِمَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ فِي البَابِ السَّابِقِ، بِخُصُوصِ نَتَائِجِ تَبَيُّنِ "نظريات المؤامرة".

2() وهي دول تمكنت من تحقيق معدل نمو اقتصادي عالٍ، من خلال التوجه الجاد نحو تحقيق تقدُّم صناعي وتقني بين فترة الستينيات والتسعينيات من القرن الماضي، وهي: كوريا الجنوبية، وتايوان، وسنغافورة، وهونج كونج. ولقد تحوَّلت هذه الدول، من خلال التركيز على التطوير في مجالات الاقتصاد الصناعي عالي التقنية، إلى دول متقدمة مع بداية القرن الحادي والعشرين.

3() "معجزة شرق آسيا: النمو الاقتصادي والسياسات العامة"، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2000.

4() ونُشيرُ هُنَا، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، إِلَى الكَلِمَةِ "التاريخية" لِلأَمِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ سَلْمَانَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ - وَلِيِّ العَهْدِ السُّعُودِيِّ- بِمِنْتَدَى "مبادرة مستقبل الاستثمار"، فِي عَامِ 2017، حِينَ أَكَّدَ عَلَى ضَرُورَةِ القَضَاءِ عَلَى التَطَرُّفِ، وَالعُودَةِ إِلَى الإِسْلَامِ الوَسْطِيِّ، الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ قَبْلَ عَامِ 1979. كَمَا نُشيرُ إِلَى مَا نَادَتْ بِهِ القِيَادَاتِ، فِي جُمهُورِيَّةِ مِصرِ العَرَبِيَّةِ وَدُولِ مِجْلِسِ التَّعَاوُنِ الخَلِيجِيِّ وَغَيرِهَا مِنَ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ، بِضَرُورَةِ التَّحَرُّرِ مِنَ أَضْرَارِ التَّشَدُّدِ الَّذِي عَانَتْ مِنْهُ مِجْتَمَعَاتُنَا.

5() ونُشيرُ هُنَا، كَمِثَالٍ، إِلَى مُؤْتَمَرِ "حوار الأديان والثقافات" الحادي والثلاثين، فِي 10 مَارَسِ،

2021، الذي نظّمه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، التابع لوزارة الأوقاف المصرية، الذي أكد على ضرورة العمل على نشر الإسلام الوسطي، واحترام الأديان، ومحاربة الإرهاب والفكر المتطرف بكافة أشكاله.

وسبق ذلك، في 27 مايو، 2019، دعوة علماء المسلمين إلى الوسطية والاعتدال، وذلك في المؤتمر الدولي الذي نظّمته رابطة العالم الإسلامي، في مكة المكرمة، والذي أكد على أهمية تبني الخطاب الوسطي والاستجابة لمتغيرات العصر.

وتتبع هذا المؤتمر إعلان "وثيقة مكة المكرمة" الصادرة عن الدورة الرابعة عشرة لمؤتمر القمة الإسلامي، والتي أكدت أيضاً على أهمية الاعتدال وتبني الوسطية والتسامح ومحاربة الإرهاب.

6) د. سعد بن علي الشهراني، "العامل الاقتصادي في الظاهرة الإرهابية"، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2014.

7) لا يتسع المقام هنا لإيراد أمثلة على كل من هذه الجوانب. ويمكن للقارئ، الراغب في المزيد، بحث موضوع "الوعي بأضرار الإسلام السياسي" في محركات البحث على الإنترنت، للحصول على أمثلة لكل من هذه الجوانب.

8) وكان ذلك من خلال عقد اتفاقيات بين دول أوروبا، والتي كان من أهمها معاهدة "سنغافيا" في عام 1648م، ومن ثمّ اتفاقيات تأسيس الاتحاد الأوروبي، التي اكتملت في عام 2007م.

9) أحمد طلب، "كوريا الجنوبية" و"اليابان".. أكثر من مجرد حرب تجارية"، جريدة القبس، 2019.

10) "القوة الناعمة - Soft Power"، الموسوعة السياسية، 2022.

11) سيّد علي، "اطلبوا النهضة ولو من بوروندي"، جريدة الأهرام، 2020.

12) "السعودية الأولى ومصر الثالثة... أكبر الاقتصادات العربية"، RT، 2021. وتأتي الإمارات العربية المتحدة في المركز الثاني من هذا المؤشر، وذلك حسب مجلة "فوربز" العالمية.

ويشير التقدم السريع الذي تحرّزه هذه الدول، إلى مدى تركيزها على "خيار التنمية"، بهدف تحقيق المزيد من التقدم.

13) ويُقصد بالشمول المالي، دعم فرص وصول الأفراد من الطبقات المهمشة، والمؤسسات الاقتصادية الصغيرة والمتناهية الصغر (التي عادةً ما لا تكون مدموجة في الاقتصاد الرسمي) إلى منتجات وخدمات مالية مفيدة، بأسعار ميسورة تلبي احتياجاتهم وتدعم نموهم الاقتصادي والاجتماعي.

ويعتمد "الشمول المالي" على الاستخدام الفعّال لتقنية المعلومات، والتي ستتم الإشارة إليها لاحقاً. ويؤدي نجاح سياسات الشمول المالي على المدى المتوسط والطويل إلى توسيع شريحة "ذوي

الدخل المتوسط" ودعم موارد الدولة.

14() يُمَثَّل "تطوير الاقتصاد الرقمي" أهمية خاصة، من حيث قدرته على دعم مجالات التنمية الأخرى، وتسريع عجلة التقدم بشكل عام، كما سيتم إيضاحه لاحقاً.

15() لا يتسع المجال هنا لإيراد جميع جوانب التطوير الذي تعمل على تحقيقه عدد من الدول العربية في هذه المجالات بمستويات متفاوتة. ويمكن للقارئ الراغب في الاطلاع على جوانب التطور الحالي في الدول العربية، بحث موضوع "طفرة تنمية عربية"، في محركات البحث على الإنترنت. ويُمكن أيضاً البحث من خلال الإنترنت في مدى تطور الدول العربية بكل من هذه المجالات.

16() وتشمل معايير الانضمام إلى مصاف "الدول المتقدمة": "ارتفاع معدل دخل الفرد"، نتيجة لارتفاع الناتج المحلي الإجمالي؛ و"ارتفاع مستوى التقدم الصناعي" (والذي يتمثل حالياً في الصناعات ذات التقنيات المتقدمة، مثل صناعة تقنية المعلومات والذكاء الاصطناعي وغيرها). ولقد أُضيفَ إلى هذين المعيارين مؤخراً، معيار "التقدم على مؤشر التنمية البشرية".

وبالرغم من أن "الاعتراف الدولي" بانضمام أي دولة إلى مصاف "الدول المتقدمة" يرتبط بعوامل سياسية أبعدها، فإننا نعتقد جازمين أن استمرار دولنا في تحقيق مستويات أعلى على هذه المعايير، يجعل هذه الدول تفرّض نفسها، عاجلاً أم آجلاً، كدول "متقدمة اقتصادياً". وتعمل دول عربية حالياً جاهدة على تحقيق ذلك، وتُحرز تقدماً ملحوظاً في هذا المجال.

17() سيتم التطرّق إلى جوانب من ظاهرة ترقّي دول عربية على مؤشرات عالمية في القسم (ب) التالي من هذا الباب.

18() يُطلَق مسمى "الاقتصاد الرقمي"، بشكل عام، على جميع نشاطات التطوير التي تعتمد على التقنية المتقدمة. ويُعرّف مفهوم الاقتصاد الرقمي، حسب "صندوق النقد العربي"، بكونه الاقتصاد الذي يوظف التقنيات الرقمية في تطوير الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية. ويتم تحقيق ذلك من خلال رفع كفاءة إنتاج السلع، وتقديم الخدمات، وتحسين نوعيتها، وتوفير خدمات جديدة تدعم فعالية وتنظيم ورفاهية المجتمع.

ويعتمد الاقتصاد الرقمي (والذي يُطلق عليه أيضاً مسمى "الاقتصاد المعرفي") على "تقنية المعلومات"، التي تُعرّف بكونها: عملية إنتاج المعلومة، بدءاً من التدريب والتدريس، ووصولاً إلى صناعة أجزاء ومكونات الأجهزة ذات التقنية المتقدمة، وتطوير البرامج والتطبيقات الإلكترونية، واستخدام الذكاء الاصطناعي، وغير ذلك.

19() تُمَثَّل "القاطرة" أولى عربات القطار، التي تسحب العربات الأخرى.

20() "الاقتصاد الرقمي قوة محركة للنمو في الصين ب 5.5 تريليون دولار، و 40 % من الناتج المحلي الإجمالي"، جريدة الاقتصادية، مايو، 2021.

21) ماجد الجميل، "أونكتاد تُحذّر ... الدول النامية تواجه خطر التخلف عن الموجة التقنية الجديدة"، جريدة الاقتصادية، 25 فبراير، 2021.

22) المرجع السابق.

23) وتشمل هذه الكيانات شركات مثل: أمازون، وقوقل، وأوبر، ويوتيوب، وفيس بوك، وتويتر، وعلي بابا، وتك توك، وكورسيرا، وكلوب هاوس، وتطبيقات عديدة أخرى. ولا تزال القائمة في اتساع بشكل مستمر.

24) Christopher M. Schroeder, "Startup Rising: The Entrepreneurial Revolution Remaking the Middle East", St. Martin's Press, 2013.

25) "العالم العربي على أبواب عصر ذهبي جديد في قطاعات العلوم والتكنولوجيا ... تعرفوا إليه"، WIRED, MIDDLE EAST، 2019.

26) وأشير في ذلك إلى "رؤية" المملكة العربية السعودية، 2030.

27) "قصة سنغافورة: مذكرات لي كوان يو"، مكتبة العبيكان، 2000.

28) مرجع سابق، "الاقتصاد الرقمي قوة محرك للنمو في الصين.."، جريدة الاقتصادية، مايو 2021.

29) وذلك حسب نتائج استطلاع "أصداء بي سي دبليو" 2021، الذي تجريه شركة الأبحاث الدولية "بي إس بي" عن آمال ومخاوف وتطلعات الشباب العربي، الذين ينتمون للفئة العمرية بين 18 و24، في 50 مدينة، ضمن 17 دولة بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

30) مرجع سابق، "العالم العربي على أبواب عصر ذهبي جديد.."، WIRED, MIDDLE EAST، 2019.

31) ونشير هنا إلى ما حققته المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، ودول من مجلس التعاون الخليجي، من استقرار اقتصادي بالرغم من انهيار أسعار البترول خلال هذه الفترة، الأمر الذي أشارت إليه تقارير محلية وعالمية، بما في ذلك "صندوق النقد الدولي".

32) "بالأرقام ... هكذا صمّد الاقتصاد المصري أمام كورونا"، سكاى نيوز عربية، 2020.

33) حَقَّقَت المملكة العربية السعودية المركز الثاني عالمياً، من حيث التعافي من فيروس كورونا المستجد، حسب مؤشر "نيكاي" العالمي، 2021.

34) سعيد بنسعيد العلوي، "الهوية العربية بين الانغلاق والانفتاح"، جريدة الشرق الأوسط، 2012.

35) خالد الشرقاوي السموني، "الاتصال الثقافي والثقافات المحلية"، جريدة الوطن، 2020.

36) عمرو صلاح، "بناء الهوية في المجتمعات التكنولوجية ... سنغافورة نموذجًا"، المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، 2017.

37) محمد نجيب السعد، "من تجارب الشعوب ... قصة النجاح الماليزية"، جريدة الوطن، عُمان، 2014.

38) وذلك انطلاقًا من قوله (عز وجل): (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)، سورة الرعد، آية: 11.

39) د. حامد طاهر، "تراجع الحركة العلمية عند المسلمين"، موقع أ.د. حامد طاهر، 2017.

40) نتائج دراسة مركز جالوب، من مقال بعنوان "ما هي الدول الأقل والأكثر تدينًا في العالم؟"، موقع ساس، 2015.

41) ونشير في ذلك إلى قوله (عز وجل): (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، سورة الحجر، آية: 9، وإلى الحديث الشريف: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله هذا الدين"، رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي، وصححه الحاكم، والألباني.

42) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۖ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)، سورة يونس، آية: 99.

43) الحديث الشريف: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"، رواه أبو داود، وصححه السخاوي في "المقاصد الحسنة"، والألباني في "السلسلة الصحيحة".

44) من محاضرة للدكتور شوقي علام، ضمن سلسلة المحاضرات الدينية لشهر رمضان، التي تقدمها جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية، تحت شعار "القيم الكبرى في القرآن الكريم"، جريدة الأهرام، 2021.

45) لا يسع المجال هنا لتناول العديد من السياسات والمبادرات التي تعمل عليها دول عربية لدعم الابتكار والإبداع. ويُمكن الاطلاع على أهم هذه الجهود من خلال البحث في الإنترنت عن مواضيع مثل: "تطوير التعليم والابتكار والإبداع في العالم العربي"، وغير ذلك.

46) ويمكن الاستفادة في ذلك من تجارب دول مثل "سنغافورة" و"كوريا الجنوبية" و"ماليزيا" و"اليابان"، والتي سبقت الإشارة إلى بعضها.

47) ويؤكد على ذلك ما أحرزته دول عربية مثل: الإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية، وجمهورية مصر العربية من تقدم في هذا المجال خلال السنوات القليلة الماضية. ويظهر ذلك من خلال ترقيتها في "مؤشر القوة الناعمة" لعام 2021، والذي أشار إليه موقع

"كيوبوست" تحت عنوان "مؤشر القوة الناعمة 2021: تقدم عربي وتراجع أمريكي... والإمارات ضمن العشرين الأوائل"، 2021.

48) ونشير هنا إلى دخول "صندوق الاستثمارات العامة السعودي" بنسبة مؤثرة في تأسيس "رؤية سوفت بانك"، والذي أشارت إليه "بلومبيرج" و"فايننشال تايمز"، كعملاق تقني عالمي.

49) حققت المملكة العربية السعودية المرتبة الثانية بين دول مجموعة العشرين في مجال التنافسية الرقمية، وذلك حسب تقرير المركز الأوروبي للتنافسية الرقمية، 2021.

50) ونشير هنا، على سبيل المثال، إلى تدشين الهيئة العربية للتصنيع ومجموعة طلال أبو غزالة العالمية خطوط إنتاج أول منتج عربي "للتابلت واللاب توب" في جمهورية مصر العربية، وفقاً لمعايير الثورة الصناعية الرابعة. هذا إضافة إلى مشروع تصنيع السيارة الكهربائية، وغير ذلك. ويشمل ذلك أيضاً جهود دول مجلس التعاون الخليجي في رفع نسبة "المحتوى المحلي" في صناعاتها التقنية، المدنية والدفاعية، وتحقيق نتائج ملموسة في هذا المجال.

51) وفي ذلك نشير إلى مشروع الإمارات العربية المتحدة لاستكشاف المريخ (مسبار الأمل)، والذي تم إطلاقه في يونيو 2020، ووصل إلى مساره بنجاح في فبراير، 2021. كما تقوم دول عربية أخرى بمبادرات مشابهة في مجال إطلاق أقمار صناعية بمستويات متزايدة من المكون المحلي.

52) مثل تطبيق "نون"، كأكبر منصّة للتجارة الإلكترونية في منطقة الشرق الأوسط. هذا إضافة إلى شركة "كريم" التي استحوذت عليها شركة أوبر العالمية في عام 2020 بقيمة 3 مليارات دولار. وسبقهما برنامج "مكتوب" الإلكتروني، الذي تأسس في المملكة الأردنية الهاشمية، وتم بيعه في عام 2009 إلى شركة "ياهو" بقيمة 164 مليون دولار.

ونشهد حالياً تزايداً في عدد قصص نجاح شباب عربي في إنشاء شركات في مجالات التطبيقات الرقمية، حصل بعضها على تمويل من مؤسسات عالمية كبرى، ويتم تسجيل بعضها في البورصات العالمية.

53) ونشير هنا إلى مشروع إنشاء أكبر منشأة لإنتاج الهيدروجين الأخضر في العالم، باستخدام الطاقة الشمسية، بالمملكة العربية السعودية. ولقد أدركت دول عربية أخرى أهمية هذا القطاع، وأخذت خطوات جادة في تطويره بمستويات رائدة على مستوى العالم. ويُمثّل ذلك أحد نماذج "التنافس البناء" بين الدول العربية في مجالات التنمية، والذي سبقت الإشارة إليه.

54) وهنا نشير إلى إنشاء مشروع "هايبربول" بالإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية.

55) ومن ذلك، استخدام جمهورية مصر العربية لتقنيات "الاستشعار عن بُعد" و"نظم المعلومات الجغرافية" و"إنترنت الأشياء" و"نظم الذكاء الاصطناعي" في مراقبة المحاصيل والتعرّف على

الآفات ونوعيتها، وتحديد الكميات والتوقيتات المناسبة لاستخدام الأسمدة والمبيدات ومواعيد الري.

56() ونذكر هنا إنشاء مشاريع مثل مشروع مدينة "نيوم" وغيره بالمملكة العربية السعودية، و"العاصمة الإدارية" ومدن أخرى بجمهورية مصر العربية، ومدينة "مصدر" وغيرها بالإمارات العربية المتحدة، ومدينة "مشيرب" في الدوحة بإمارة قطر، ومدينة "سيدي عبد الله" بالجزائر، ومشروع "تغازوت باي" في المملكة المغربية، و"المدينة الصناعية الذكية بميناء الدقم" بسلطنة عمان، ومدينة "بنزرت" بالجمهورية التونسية، وجهود المملكة الأردنية الهاشمية لتحويل "مدينة عمّان" إلى مدينة ذكية، وغيرها.

57() "ماذا حقق العالم العربي في مجالات الطاقة المتجددة خلال 2019؟"، مرصد المستقبل، 2019.

58() "تقرير ماجنيت: قطاع التقنية المالية يحقق نموًا غير مسبوق في العالم العربي في 2019"، مرصد المستقبل، يناير 2020.

59() ومن هذه الدول دول بمجلس التعاون الخليجي، وجمهورية مصر العربية، والجمهورية الجزائرية، والمملكة الأردنية الهاشمية، والمملكة المغربية، والجمهورية التونسية وغيرها.

60() ماجد الجميل، "أونكتاد تحذر ... الدول النامية تواجه خطر التخلف عن الموجة التقنية الجديدة"، جريدة الاقتصادية، 25 فبراير، 2021.

61() لا تتطلب معرفة طبيعة هذا "المخاض" الكثير من البحث، حيث تظهر طبيعته وتطوراته بشكل يومي في قنوات الإعلام. وتختلف طبيعة هذا المخاض من دولة عربية إلى أخرى، إلا أنها لا تخرج عن مجالات "التحديات" التي تمت الإشارة إليها في الباب الرابع، وبشكل خاص مجالي أكبر تهديدين لفرص تحقيق تقدم بالدول العربية، وهما: ظاهرتا الانغلاق الفكري وتسييس الدين.

62() أمين معلوف، "غرق الحضارات"، ترجمة نهلة بيضون، دار الفارابي، 2001.

63() لا يسع المجال هنا للحديث عن "تاريخ العلاقة بين الدول العربية وأسباب تعثرها". وقد يُوفّر هذا الموضوع فرصة لمزيد من البحث من قبل المتخصصين في هذا المجال، بهدف تقادي "المهدّدات" للعلاقة بين الدول العربية.

كلمة أخيرة

إننا لا ندعي هنا بأن أيًا من الدول العربية قد قطعت شوطًا كافيًا من التطور لحجز مكانها بين الدول المتقدمة. إلا أننا لا يُمكننا، أيضًا، إغفال السعي المُتسارع والمحموم لدول عربية بغرض تحقيق تقدم، ناهيك عن ظهور نتائج مُشجّعة تُشير إلى تقدم هذه الدول، وانعكاس ذلك على مؤشرات عالمية في عدد من المجالات الحيوية.

هذا بالرغم من الإرث الاجتماعي والثقافي والسياسي الثقيل الذي تحمله هذه الدول، والتحديات الكبرى التي تمر بها دول عربية عزيزة من حولها.

كما لا يمكننا أيضًا تجاهل ظهور بوادر "وعي جديد" لدى بعض مجتمعاتنا من جهة، والظروف التاريخية، والتنموية، والسياسية، والتقنية، المواتية لإحداث تقدّم من الجهة الأخرى. هذه الظروف، التي تبدو وكأنها قد توفّرت مجتمعةً لإعطاء العالم العربي "فرصة أخرى"، قبل "إسدال الستار علينا" لقرنٍ آخر.

وفي هذا الصدد، نُشير إلى أنه لا شك لدينا في أنّ استمرار إحراز دول عربية للمزيد من الترقّي على سُلّم "مؤشرات التقدم" التي تمّ إيرادها أعلاه، مع التركيز على "الأولويات"

الضرورية لإحداث "قفزة حضارية"، سيؤدّي بأمر الله -إلى وصول بعض هذه الدول إلى مصاف الدول المتقدمة في فترة قد لا تتعدّى خمسة أعوام.

وبهدف الحفاظ على استدامة "عملية التطوير"، لا يسعنا هنا إلا أن نُشير إلى ضرورة حماية مكتسبات التنمية في دولنا من مؤثرات خارجية قد تحد من مدى تسارع وتيرة التقدم. وفي هذا الصدد نُشير إلى أمرين هامّين، الأول: حرص دول ومنظمات عالمية على الانتقاص من "قيمة جهود دولنا في تحقيق التقدم"، ووضع سمعة وثقافة هذه الدول بشكل مستمر ضمن "إطار سلبي".

وتهدف هذه الجهود، ضمن أمور أخرى، إلى زعزعة ثقة شعوبنا في قدراتها وثقافتها، الضرورية لإحراز تقدم. هذا إضافة إلى ترسيخ انطباع عالمي عن "تخلّف الدول العربية"، الأمر الذي يزيد من صُعوبة "إقرار العالم" بجدارة هذه الدول بالانضمام إلى نادي الدول المتقدمة.

أما الأمر الثاني، فيتمثّل في محاولات استدراج بعض دولنا، "وخصوصًا التي تحرز تقدّمًا منها"، إلى معارك جانبية وتحديات، لاستنزاف مواردها وإبعادها عن مسار التطوير.

وكما سبقت الإشارة في الباب الرابع، عند تناولنا لموضوع "تفشي نظريات المؤامرة"، فإن علينا أن ننظر إلى هذه المؤثرات الخارجية "كتحديات تنموية" واجهت مجتمعات أخرى مثلها، وأثبتت جدارتها في التغلّب عليها.

ويتطلّب ذلك، المزيد من الحكمة والعمل الجاد، وتحويل هذه "التحديات" إلى "محفّزات" لإثبات أننا دول تستحق أن تستعيد موقعها من سلّم الحضارة.

وبالله التوفيق

الملاحق

مقدمة

ملحق (1): الكون كما لا نراه.

ملحق (2): تحديات فكرية حول الرحمة والعدل.

ملحق (3): قوى "فوق طبيعية" متاحة لنا.

عند تناول تحديات تواجه الجيل العربي الجديد، أشرنا إلى أن هذا الجيل يعاني، ضمن أمور أخرى، من مخاطبة بعض مجتمعاتنا له بأسلوب تقليدي؛ لا يستحث فكره، وتاريخي؛ كثيراً ما لا يرتبط بعصره وتجاربه، ووصائي؛ يستثير حفيظته، و" تبريري "؛ كثيراً ما يستهين بعقله.

وكما أشرنا عند تناولنا للحالة الدراسية في الباب الأول، يُمَثَّل التوجُّه الفكري أحد أهم العناصر التي تتسبَّب في إحداث فجوة بين الجيل العربي الجديد ومجتمعه.

ذلك أن مجتمعاتنا العربية من أكثر الشعوب محافظةً وتديُّناً على مستوى العالم (1)، الأمر الذي يجعل أي شخص يتبنَّى توجُّهاً يختلف عن التوجه العام شخصاً مرفوضاً مجتمعياً.

من الجانب الآخر، تأتي الكثير من الأفكار الحديثة، من مختلف قنوات المعلومات، بالعديد من الطروحات التي تُقدِّم بدائل للجيل الجديد وغيره، بهدف "تحريرهم" من الارتباط فكرياً وثقافياً بمجتمعات تتسم بالانغلاق الفكري، والتشدد، والتعدّي على الحريات الفردية، وغير ذلك.

ويأتي توجُّه بعض مجتمعاتنا "الوصائي"، وأسلوبه التقليدي في التعامل مع جوانب الخلاف مع الجيل الجديد، ليؤكد على ما تذهب إليه الطروحات الخارجية الحديثة، ويزيد من سعة الفجوة بين هذا الجيل ومجتمعه.

لذا، فإن من الضروري تناول القضايا التي تتسبَّب في إيجاد خلافات فكرية بين الجيل الجديد والمجتمع، بأسلوب حديث، وغير وصائي، يحترم عقل الجيل الجديد؛ وذلك للحد من أسباب هذه الخلافات.

وفي سبيل تقديم أمثلة لخطاب، غير تقليدي، يُحقِّق الهدف أعلاه، يتم في الملاحق التالية التطرق، أولاً: إلى دلائل على مدى ما لا نعلمه كبشر عن ظواهر كونية أساسية، الأمر الذي يتطلب التريُّث قبل إصدار، أو قبول، ادعاءات بمعرفة شمولية لهذا الكون، ناهيك عن خالقه.

من الجهة الأخرى، واستجابةً لبعض التحديات التي يواجهها الجيل الجديد، وبعض من الجيل الذي سبقه، يتم أيضاً التطرق إلى منظور يستجيب لتساؤلات أساسية وهامة عن مفاهيم

"الرحمة" و"العدل" في هذا الكون، والتي تؤرق الإجابة عنها الكثير من أبناء وبنات الجيل العربي الجديد، وغيرهم.

أخيراً، يتم تقديم طرح عن قوى "فوق طبيعية" متاحة لنا، يظهر مفاهيم خاصة في ثقافتنا، يُمكن البناء عليها في تجسير الفجوة بين الجيل الجديد والذي سبقه.

ويتم تناول هذه المواضيع في ثلاثة ملاحق، تشمل: "الكون كما لا نراه"، و "تحديات فكرية حول الرحمة والعدل"، و "قوى فوق طبيعية متاحة لنا".

1() إحصائية معهد "غالوب" عن مستوى المحافظة والتدين في دول العالم، 2015.

تم في الباب الأول من هذا الكتاب، التطرُّق إلى توجُّه ذهني نجده لدى البعض من أبناء وبنات الجيل العربي الجديد، وبمستوى أقل نسبيًّا لدى الجيل الذي سبقه. ويتمثَّل ذلك في ثقة البعض في علمه وثقافته وقدراته للمدى الذي يظن أنه "قد علم" (1)، وذلك للقدر الذي يُمكنه من إصدار أحكام متسرعة، قد تكون غير مُتَّزِنة، على الأعراف المجتمعية والمنظومات القيمية، وصولاً إلى بعض المعتقدات الأساسية.

من الجانب الآخر، تأتي بعض الطروحات الحديثة لتشير، بشكل قد يبدو منطقيًّا، إلى مظاهر "عدم توازن أو اتساق" في بعض الظواهر الكونية والقوى الطبيعية من حولنا، أو إلى عدم عدالة الخالق أو رحمته، وغير ذلك. وقد تُؤدِّي هذه الطروحات إلى حالة تشوُّش بخصوص هذا الكون وخالقه.

في سبيل إلقاء بعض الضوء على هذه الحالة، سيتم في هذا الملحق إظهار "مدى قصور قدراتنا وغيرنا، كبشر"، على الإحاطة بظواهر كونية أساسية، ناهيك عن قدرتنا على الحكم على مدى توازن واتساق هذا الكون أو على خالقه. ويتم فيما يلي التطرق، على سبيل المثال، إلى ظاهرتي

المكان والزمان ، لبيان ذلك.

بخصوص ظاهرة المكان ، تشير إلى أننا كبشر نتفق بشكل شبه فطري على ثلاثية أبعاد المكان، والتي تشير إليها، بالطول (س)، والعرض (ص)، والارتفاع (ع). وفي حين لا يُمكننا تخيُّل أي بُعدٍ خلافاً لهذه الأبعاد الثلاثة، فإن هناك بحثاً علمية تُشير إلى أبعاد أخرى للمكان، تتمثَّل في احتمال وجود "أكوان متوازية" (2).

ولقد ظهرت مؤخراً نظرية "الأوتار الفائقة"، التي تشير إلى إمكانية وجود أكوان متعدّدة متصلة ببعضها البعض، لكلٍّ منها قوانينه الخاصة به. بمعنى أن حيز المكان الواحد قد يكون مشغولاً بأكثر من جسم، ولكن من عوالم (أو أبعاد) مختلفة، لا نراها.

وبحسب هذه النظرية، فإن الكون ما هو إلا سيمفونية أوتار فائقة متذبذبة (3)، الأمر الذي يتعدَّى حدود قدراتنا الحسية على فهم مداه كبشر.

وبالرجوع إلى ما ورد في التراث الإسلامي، نجد في القرآن الكريم، على سبيل المثال، إشارة

فوق مستوى قدراتنا البشرية الدنيوية(11). وفي ذلك يقول د.منصور حسب النبي: "الموت هو الطريق الوحيد الذي سيحررنا من عالم الماديات... ونَطَّلِعُ بعده على ما لا عَيْنٌ رأت، ونسمع ما لا أُنْ سَمَعَتْ، ونشعر بما لا يخطر على قلب بشر"(12). وفي مقامٍ ذي صلة، يقول علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): "الناس نيام، فإذا ماتوا انتَبَهوا"(13).

وبصرف النظر عما أشرنا إليه من قصور في إدراكنا البشري لمفهوم الزمان، من حيث الكم والأبعاد، فإن قصور علم الإنسان وإدراكه لعنصر الزمن يتعدى ذلك بكثير، ليصل إلى استحالة وصول الإنسان لأي فهم حقيقي للزمن.

ذلك أن الله (عز وجل) وَصَفَ نفسه بأنه "الدهر"(14). وهنا نُحِجِمُ عن تقديم أي فهم أو دليل بخصوص ماهية الزمان، حيث إن ذلك يرتبط بذات الله (عز وجل)، ونكتفي بالقول بوجود قصور لدى البشر عن فهم طبيعة الزمن من حيث الكم، والبعد، والماهية.

مما سبق يتضح قصور إدراكنا لمفهومي المكان والزمان. ليس ذلك فحسب، بل إننا كبشر غير قادرين حتى على تخيُّل أبعاد وأطر هذا الكون المحتملة، الأمر الذي يدعونا إلى التواضع، قبل قبول أي آراء تدَّعي الوصول إلى "الحقيقة" اعتمادًا، فقط، على العقل أو التجربة الحسيَّة.

وفي هذا الصدد، نشير إلى أن هناك العديد من الفلاسفة والعلماء، ومنهم "أفلاطون" و"أرسطو" و"آينشتاين"، الذين وَصَلُوا إلى حالة "تسليم" أمام الظواهر، التي تُدَلُّ على اتساع الكون ومستوى الإبداع في تنظيمه وتعدُّد احتمالات طبيعته، ومن ثم مدى قصور قدراتنا البشرية عن فهمه(15).

وفي ذلك يصف آينشتاين موقفنا، كبشر، من الكون، كطفل دخل مكتبة مملوءة بكتب بلغات عديدة، يعرف هذا الطفل أن أحدًا ما قد كتب هذه الكتب، لكنه لا يفهم اللغات التي كُتِبَتْ بها. ويلمح الطفل أيضًا أن هنالك نظامًا تم بموجبه ترتيب هذه الكتب، لكنه لا يعرف ما ذلك النظام(16).

ويقول آينشتاين في ذلك: "وفي رأيي، فإن هذا هو موقف، حتى الأذكى منا"، إزاء إله هذا الكون. فنحن نرى كونه على درجة عالية من النظام، تحكمه قوانين بالكاد نفهمها، وعقولنا ذات القدرة المحدودة لا تستوعب القوة الغامضة التي تحرك الكواكب السماوية". أخيرًا، يُشير آينشتاين إلى أنه يؤمن قطعًا بأن الإله "ليس كمثله شيء من الموجودات"(17).

ولقد كان من أكثر ما أدهشني في هذا الصدد، ما قرأته عن "جين بول سارتر" - أحد أشهر أعمدة الإلحاد في العالم، مؤسس المدرسة "الوجودية" التي تركز على فكرة عدم وجود إله،

وبالتالي عدم وجود نظام أخلاقي مُطلق.

ولقد قال هذا الفيلسوف قبل وفاته: "أنا لا أحس أن وجودي كان نتيجة لصدفة... ذرّة من الغبار في الكون... وإنما شخص كان متوقعًا وجوده، ومُعَدّ لدورٍ ما، وسابق الإعداد. باختصار، مخلوق لا يمكن إلاّ لإله أن يوجد. وهذه الفكرة لليد المبدعة، تشير إلى الله" (18).

1() وفي ذلك يقول ابن المبارك "لا يزال المرء عالمًا ما طَلَبَ العِلْمَ، فإذا ظَنَّ أَنَّهُ قد عِلِمَ فقد جَهِلَ".

2() "ما هي نظرية الأكوان المتوازية"، موقع سطور، 2020.

3() "فيزياء كل شيء: ما هي نظرية الأوتار الفائقة"، مرصد المستقبل، 2016.

4() (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)، سورة آل عمران، آية 133.

5() ويحضرني في ذلك قوله (عز وجل): (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)، سورة الحاقة، الآيتان: 38-39.

6() (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)، سورة الطلاق، آية: 12.

7() "ما هي اللبنة الكونية؟ من الزمان والمكان إلى الزمكان"، موقع ناسا بالعربي، 2017.

8() توصل العلماء إلى أجزاء من الثانية، تُسمى "فمتو سكند"، والتي تساوي مليون مليار جزء من الثانية (كوادريون). ولقد طوّر هذا المفهوم العالم المصري، الدكتور أحمد زويل، وحصل بناءً على ذلك على جائزة "نوبل" للكيمياء، في عام 1999.

9() سورة الحج، آية: 47.

10() ويحضرني في هذا الصدد قوله (:): "ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة، ثمّ راح وتركها". رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

11() وذلك كما في قوله (عز وجل): (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)، سورة ق، آية: 22.

12() د. منصور محمد حسب النبي، "الزمن بين العلم والقرآن"، موقع إعجاز القرآن والسنة، 2019.

13() من كلام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). من "صيد الخاطر"، لابن الجوزي.

14() ورد في الصحيحين وغيرهما عن النبي (:): قوله (عز وجل): «لا تسبوا الدهر فإنني أنا الدهر». وفي رواية: «لا يقل ابن آدم: يا خيبة الدهر؛ فإنني أنا الدهر أرسل الليل والنهار، فإذا

شئت قبضتهما».

15() ولقد توصل هؤلاء الفلاسفة والعلماء إلى فكرة وجود خالق حكيم مدبّر لهذا الكون، بعد بحث طويل وغير متحيّز عن الحقيقة.

16() د. محمد باسل الطائي، من محاضرة بعنوان "مفهوم الإله عند أينشتاين"، بكلية العلوم، جامعة اليرموك، 2019.

17() نفس المصدر أعلاه.

18() سميت بول، "لماذا أمن جين بول سارتر قبل موته"، 2018، 'The Milli Gazette'.

بتناول مفهومي المكان والزمان، لإظهار محدودية قدرتنا كبشر على إدراك طبيعة ظواهر كونية أساسية، نتطرق هنا إلى مفهوم الرحمة. هذا المفهوم الذي يمثل أحد التحديات الفكرية للعديد من البشر.

ونبدأ في ذلك بالإشارة إلى اتصاف قوى الطبيعة بكونها قوى ضاربة، تعتمد على قوانين صارمة لا يبدو في عملها أي اعتبار إلا للمعادلات التي تتبعها. ويظهر ذلك في الكثير من الحالات التي نشهدها في حياتنا.

على سبيل المثال، لو حَدَثَ وتسارع أي جرم، طبيعي أو صناعي، وسار أمامه أي مخلوق، فإن هذا الجرم سيصطدم بهذا المخلوق، بصرف النظر عن كونه إنساناً أو حيواناً، رجلاً أو امرأة أو طفلاً، صالحاً كان أو فاسداً.

وتعتمد قوة الصدمة على قوانين طبيعية بحتة، مثل قانون "الطاقة الحركية" (Kinetic Energy) الناتجة عن سرعة الجرم، والتي يرتبط تأثيرها بحجم ووزن المخلوق والجرم الذي صدمه، وبالتالي السرعة والمسافة التي سيتم قذف المخلوق إليها.

ويستمر تأثير القوى الطبيعية الضاربة في الأثر الصحي على هذا المخلوق بعد الحادثة. وترتكز هذه الآثار أيضاً على القوانين الطبيعية الأخرى ذات العلاقة بجسم الإنسان، من أحياء وكيمياء وغيرهما.

وقد ينتج عن ذلك فترات طويلة من العذاب والآلام المبرحة إلى حين تأخذ هذه القوانين الطبيعية "وقتها"، دونما ظهور أي اعتبار أو "تدخل خارجي" يحد من معاناة هذا المخلوق الضعيف.

وتظهر صرامة القوى الطبيعية الضاربة في أوضح صورها، أيضاً، في حالات الكوارث الطبيعية، مثل: الأعاصير والفيضانات، والزلازل والبراكين والجوائح الصحية، التي تضرب أي مكان تتحقق فيه الظروف "الملائمة" لهذه الظواهر، دون اعتبار للبشر، وبصرف النظر عن ظروفهم الخاصة.

ولقد قادت ظاهرة سير الأمور حسب قوانين طبيعية صارمة، دون اعتبار لتبعاتها على المخلوقات، إلى قول البعض بعدم وجود مظاهر للرحمة الإلهية على هذه الأرض. هذا في حين

رأى البعض الآخر أن الخالق قد رمى "الزهرة" (النرد)، وحوّل بصره إلى الجهة الأخرى(1). ويُقصد بذلك أن الخالق وضع القوانين الطبيعية، ثم تركها تعمل دون أي تدخل (أو متابعة منه). وفي ذلك نشير إلى أن من أساسيات علم المنطق، مبدأ: "أن إصدار أي حكم "موضوعي" على أي أمر، يتطلب معرفة كاملة بجميع جوانبه".

من هذا المنطلق، يصبح حكمنا بعدم وجود رحمة إلهية على الأرض، "منقوصًا" في حال وجود مستويات رحمة "أعلى من إدراكنا البشري".

وكما رأينا عند تناولنا لمفهومي المكان والزمان، فإن قدراتنا كبشر تقصر عن الوصول إلى فهم كامل لجميع جوانب هذه المفاهيم الأساسية، الأمر الذي ينطبق أيضًا على مفهوم الرحمة. ومما يؤكد على عدم قدرتنا كبشر على الإحاطة الكاملة بمفهوم الرحمة، هو أن ما نراه من مستويات الرحمة من منظورنا البشري، يمثل فقط $1/100$ من مستويات الرحمة الإلهية(2)، الأمر الذي يجعل حكمنا، كبشر، على الرحمة، وغيرها من الظواهر الكونية، بناءً على ما نراه، حكمًا منقوصًا.

عليه، فإن محاولة البعض شرح قضية الرحمة الإلهية للمشككين فيها، بناءً على "المنطق البشري الصرف"، سوف تضعهم في موقف جدلي ضعيف. ذلك أن الطرف الآخر سوف يستخدم، أيضًا، منطق "البشري" الخاص في دحض هذا المنظور، الأمر الذي يؤدي إلى حالة تشوش لدى المراقب لهذا السجال.

إن الإقرار بعدم معرفتنا كبشر لمدى سعة رحمة الخالق، يكفينا مؤونة الدُخول في متاهات الجدل والمقاربات لشرح ظواهر الرحمة الإلهية، التي يقع الجزء الأكبر منها ضمن توازانات خارج مجال إدراكنا البشري.

مفهوم العدل

في ضوء تناول مفاهيم المكان والزمان والرحمة، يتضح قصور قدراتنا البشرية عن فهم أبعاد أساسية من الظواهر الكونية، الأمر الذي لا يمكننا شرحه بالاعتماد على منطقنا البشري. وينطبق ذلك أيضًا على مفهوم "العدل".

وقبل تناول دلائل ترتبط بمفهوم العدل، نُشير إلى نماذج لأسباب التشوش التي تنتج عن محاولات شرح قضايا ترتبط بالعدل بمنطقنا البشري. ونبدأ في ذلك بالإشارة إلى بعض الأسئلة التي يُثيرها

البعض عن عدالة الخالق وطبيعة الردود الدارجة عليها.

وتتضمّن هذا الأسئلة، التساؤل عن كيفية أن يكون للإنسان اختيار فيما يفعل، في حين أن إرادة الخالق نافذة في جميع خلقه. وبمقتضى ذلك يرون أن من الظلم معاقبتنا كبشر على ما نقترف من ذنوب، نظرًا لأن الله قَدَّرَ ما كان وما سيكون، ولا يخرج عن أمره شيء.

كما تشمل هذه الأسئلة أيضًا تساؤلًا عن مدى عدالة عقاب الذين وُلِدوا في بيئات غير مؤمنة. هذا إضافة إلى أسئلة مرتبطة بالعذاب الأبدي لغير المؤمنين بالله، الذين قد نراهم صالحين، مقارنة بمؤمنين به قد نراهم من المسيئين، وما إلى ذلك.

إن طرح مثل هذه التساؤلات على الكثير من المؤمنين بالله، يُواجه عادةً بردودٍ قد تتّصف بالحنق والازدراء، أو حتى الإهانة للسائل. وقد يتبع هذه الانفعالات أيضًا الدخول في جدال طويل مع السائل، يتم فيه النفي القاطع لأي آراء يوردها، وتقديم دلائل على خطئها. وهناك العديد من النماذج في التراث الإسلامي التي تتصدى لادعاءات "المشكّكين" المشار إليها أعلاه، وغيرها(3).

من الحالات التي يجد كثير من المدافعين عن عدالة الخالق أنفسهم، أيضًا، أمام أسئلة تقع الإجابة عنها في مستويات أعلى من إدراكنا البشري، هي عند محاولة التوفيق بين آيات قرآنية لا يظهر توافقها للمنظور البشري.

وفي هذا الصدد، نشير، على سبيل المثال، إلى آيات تؤكّد على عدم خروج أي عمل نقوم به عن قضاء الله وقدره(4). هذا في حين أنّ هناك آيات أخرى تشير إلى عدم إجبار الإنسان على المعصية، وبالتالي مسؤوليته عمّا يفعل(5).

ولقد قاد هذا الأمر إلى جدل بين العلماء والفلاسفة على مر التاريخ الإسلامي، تمثّل في الإجابة عن السؤال عما إذا كان الإنسان "مُسَيَّرًا أم مُخَيَّرًا" بشكل خاص، وعن موضوع "القَدَر" بشكل عام.

ولقد تحوّل هذا الجدل في فترات عديدة إلى نزاعات، تدخّلت فيها "الحميّة" للرأي، كأفراد ومذاهب، ووصل بعضها إلى "متهاتات" تم فيها التآلي على الخالق (عز وجل). ولم يسلم هذا الجدل أيضًا من دخول الجانب السياسي طرفًا فيه(6).

وفي دلالة واضحة على عدم جدوى الخوض في قضايا تتعدّى مجال فهمنا، نُشير هنا إلى قوله (:) "إذا ذكِرَ القَدَرُ فأمسِكوا"(7).

وفي حين يجد بعض العلماء الوقت والطاقة للدخول في جدليّات في قضايا يُمكن الرد عليها

بالإشارة إلى "كون هذه الأمور أعلى من أن نحيط بها بقدراتنا البشرية المحدودة"، فإن مجتمعاتنا في غنى عن الدخول في قضايا تتسبب في مزيد من النزاعات وحالات التشويش.

أخيرًا، وتأكيديًا على عدم قدرتنا كبشر على فهم "كيفية أن نكون مُخَيَّرين في عمل ما نريد، في حين أن جميع ما في الكون لا يخرج عن أمر الخالق (عز وجل)"، يقول جلال الدين الرومي (8):

كثيرًا ما نسأل أنفسنا: لماذا قُلْتُ كذا؟ وكيف فَعَلْتُ كذا؟

في حين أننا نحن الذين اخترنا فعل كذا أو كذا، فإن كل ذلك كان بتدبير الخالق.

نتساءل: كيف يكون فعل الأمر باختيارنا وبتدبير الخالق في آن واحد؟

لمعرفة مدى قدرتنا على فهم ذلك، حاول النظر إلى الأمام والخلف في آن واحد.

بطبيعة الحال، لا يمكننا فعل ذلك.

الله وحده القادر على ذلك (9).

1) تشير هذه المقولة إلى تعبير العالم أينشتاين، في نظريته عن ميكانيكا الكم، بأن "الله لا يرمي النرد". وأتى هذا التعبير في رد أينشتاين على العالم الألماني "ماكس بورن"، الذي ادعى بعشوائية الكون.

2) "إنَّ الله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يترحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخرَ الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة"، في صحيح مسلم عن أبي هريرة.

3) ونشير في ذلك، على سبيل المثال، إلى ما ورد في كتاب الشيخ محمد الغزالي: "مائة سؤال عن الإسلام"، نهضة مصر، 1984.

4) وذلك كما في قوله (عز وجل) على لسان موسى (عليه السلام): (في سورة الأعراف، آية:

155)، في سورة الأعراف، آية: 155. وأيضًا في قوله تعالى: (يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ قَلِيلٌ وَمَنْ يَضِلْ قَلِيلٌ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ) سورة غافر، آية: 33. وكذلك في قوله: (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ قَلِيلٌ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ) سورة الزمر، آية: 37.

5) كما في قوله (عز وجل): (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)، سورة الزمر،

آية 3. وأيضًا في قوله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)، سورة الإنسان،

آية: 3.

6() يونان سعد، "أنا مخير أم مسير؟ (السؤال التعجيزي وكيف تصارع الأئمة والفلاسفة بسببه)"، موقع رصيف، 2017.

7() رواه عبد الله بن مسعود وثوبان وعمر بن الخطاب، "الجامع الصغير".

8() ترجمه الكاتب بتصريف من اللغة الإنكليزية، من كتاب "أهم أشعار جلال الدين الرومي"، للكاتب كولمان باركس، نيويورك: هاربر ون، 2004.

9() يُشير جلال الدين الرومي هنا، إلى أن فهم كيفية أننا نختار ما نفعل في حين أن الخالق سبق أن قدر كل شيء، يتطلب منا الحصول على قدرات "فوق بشرية"؛ مثل رؤية أكثر من اتجاه في آن واحد. هذه القدرات التي لا تتوفر إلا للخالق.

وبالتالي، فإننا، أيضًا، غير مؤهلين، كبشر، على الحكم على عدالة الخالق (من حيث إنه يؤاخذنا على ما نفعل، في حين أنه سبق أن قدر كل شيء).

إن معاشتنا لقوى الطبيعة ومشاهدة ظواهرها، تجعل هذه القوى جزءاً "طبيعياً" من حياتنا. لذا، فإننا لا نندهش من أي آثار لهذه القوى، بالرغم من صرامتها؛ حيث إنها ترتبط بمسببات "فيزيائية" نفهم أسسها.

ومع ذلك، فإننا نرى من حين لآخر مظاهر لقوى لا ترتبط بالمسببات الفيزيائية "العلمية" التي عهدناها في القوانين الطبيعية.

وسيتم فيما يلي استعراض عدد من القوانين "فوق الطبيعية" التي تُحرِّك هذه القوى المسخرة لنا، وذلك على النحو التالي:

• قانون التوقُّعات

من الظواهر الخارجة عن المألوف، ما أكَّد عليه العديد من علماء النفس وخبراء التطوير الذاتي من أن "توقُّعاتنا الإيجابية" تُؤثِّر على حياتنا، و"تُحقِّق لنا ما نريد".

وفي ذلك تُؤكِّد "روندا بايرن" في كتابها الشهير بعنوان "السِّر" (1)، على أن شعورنا الإيجابي وتوقُّع الخير، بأي شكل نراه، يُولِّد "قوة جَدْب" تحقق لنا هذا الأمر على أرض الواقع. والعكس صحيح، عند توقعنا للشر.

وعلى غرار ذلك أيضاً، يُؤكِّد الكاتب "جوزيف ميرفي" في كتابه "قوة عقلك الباطن" (2) على أن ترسيخ أي فكرة أو صورة ذهنية عن المستقبل (سلبية أو إيجابية) في "عقلنا الباطن" يُؤدِّي إلى تحقيقها على أرض الواقع.

وكثيراً ما يؤدي ظهور نتائج "قوى التفكير الإيجابي"، التي يتحدَّث عنها هؤلاء الخبراء، في شكل نتائج ملموسة على أرض الواقع، إلى حالة تشوُّش لدى البعض، من حيث مصدر هذه القوى. ناهيك عن أنها لا تعتمد على قوانين الطبيعة التي تعودنا عليها.

ذلك أن مبدأ تأثير "التفكير" على "الواقع الملموس" يتعارض مع القانون الثالث للحركة، الذي يقضي بأن "لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه" (3).

ويقودنا ذلك إلى حقيقة أن العلاقة بين "التفكير الإيجابي" و"تغيير الواقع" تتبَع قانوناً "فوق طبيعي"، يتعدَّى مداه القوانين الطبيعية التي نعرفها. وفي ذلك نُشير إلى أن نظريّات "قوة" التفكير

الإيجابي، التي يُشير إليها الخبراء، لا تتطرق إلى ماهية ومصدر هذه القوة (4).

وهنا نُشير إلى وجود "قانون فوق طبيعي"، يربط بين "التفكير الإيجابي" من جهة، و"تغيير واقعنا" من جهة أخرى. ويشير إلى هذا القانون، الحديث القدسي الشريف: "أنا عند ظنِّ عبدي بي، إنَّ ظنَّ خيرًا فله، وإنَّ ظنَّ شرًّا فله" (5)، مؤكِّدًا على أن حال الإنسان يتشكَّل بحسب ما يتوقَّعه من الخالق.

وانطلاقًا من الطبيعة الكونية لهذا القانون، فإن تأثيره متاح لجميع البشر، بصرف النظر عن أجناسهم وثقافتهم ومعتقداتهم. ذلك أن "توقُّع الخير من المستقبل" هو في حد ذاته "توقُّع للخير من الخالق (عز وجل)"; حيث إن "المستقبل" جزء من الزمن (الدهر) الذي وصف الخالق نفسه به (6).

وكما أن توقُّع الخير يجلب النِّعم، فإن توقُّع الشرور يُؤدي أيضًا إلى جلبها. ويرتبط ذلك عادةً "بالخوف" من المستقبل، الذي هو سمة من سمات عدم اكتمال حسن الظن بالله. وعن تأثير "الخوف"، يقول "فرانكلن روزفلت" (7): "إنَّ ما يجب أن نخافه حقًّا، هو "الخوف ذاته"... ذلك الكائن الغامض، المرعب، غير المنطقي أو المبرَّر، الذي يشلُّ جهودنا نحو تحقيق النصر".

ولقد تم التطرق إلى عنصر "الخوف" وتأثيره الضار على الأفراد والمجتمعات في البابين: الثالث والرابع من هذا الكتاب.

• قانون اليقين

في حين يُشكِّل قانون التوقعات حال الإنسان بناءً على مدى حُسن ظنه بالله، يذهب قانون اليقين إلى أبعد من ذلك، ليصل إلى تطويع القوانين الطبيعية، أمام أعيننا، لتحقيق ما نؤمن به. ولا شك في أن البعض منا قد سمع أو اطَّلَعَ على أحداث عن تأثير قوة "اليقين"، لا تتماشى مع ما تعودنا عليه من طريقة سير الأمور.

لي صديق عزيز ظلَّ طافيًا على سطح الماء في البحر الأحمر لأكثر من يومين، وذلك بعد أن ضلَّ طريقه إلى القارب خلال ممارسته لرياضة الغوص. وبالرغم من انعدام فرص نجاته، إلا أن يقينه بأن الله سينجيه لا محالة، كان سببًا في نجاته.

وخلال بحثه الذي لم يكل عن الشاطئ، كان صديقي واثقًا من أن قرش البحر الذي كان يسبح

بقربه، لم يكن ينوي افتراسه، بل كان "يساعده" على البقاء يقظاً (تحقيقاً لهذا اليقين)، إلى أن وصل إلى الشاطئ بسلام.

ونُشير في هذا الصدد، أيضاً، إلى تجربة العالم القدير والطبيب الدكتور مصطفى محمود(8)، عندما توجه إلى ربّه بثقة ليخلصه من حصوة كلوية هددت حياته. ولقد وصف الدكتور مصطفى محمود ما حدث له في تلك الليلة، بأنه يعادل تنفيذ "عملية جراحية دقيقة" دون تدخل جراحي إنساني، وفي زمن لم يتم فيه التوصل إلى التقنيات الحديثة لتقنيت الحصوة.

وكما في قانون التوقعات، أتاح الخالق قوة قانون اليقين للموقنين من خلقه بمختلف أجناسهم وثقافتهم. وتؤكد على ذلك العديد من الشواهد(9)، والبحوث(10)، التي تُشير إلى القوة "فوق الطبيعية" المتاحة لنا كبشر، والتي تنتج عن اليقين، "كظاهرة كونية".

من أروع النماذج على قوة اليقين، المعجزات الكونية التي أكرم الله بها رُسُلَه، والتي كانت بمستويات أكبر بكثير من أي "معجزات" رأيناها أو سمعنا عنها في عصرنا، وبالقدر الذي يتناسب مع اليقين غير المحدود الذي حبا الخالق به رسله.

ونُشير هنا، على سبيل المثال، إلى تسخير الخالق لقوى كونية "فوق طبيعية" بشقّ البحر أمام نبيه موسى (عليه السلام)، لثقتَه بأنّ الله لن يهلكه وقومه. هذا بالرغم من قوة فرعون وجنّده، وجغرافية المكان الطبيعية التي لم تترك لموسى (عليه السلام) وقومه فرصة للنجاة ضمن إطار القوانين الفيزيائية "الطبيعية".

وفي ذلك يقول (عز وجل): (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)) (11).

• قانون الإحسان

ويرتبط هذا القانون، ضمن أمور أخرى، بمساعدة الآخرين. ويتضمّن ذلك تقديم المساعدات المالية والعينية للمحتاجين، والتي هي سمة من سمات الخير المتعارف عليها في جميع المجتمعات. وبالنظر إلى هذه الظاهرة من منظور اقتصادي بحت، نجد أنّ إخراج الأموال من حوزتنا وتقديمها للآخرين، دون مقابل، يتسبّب في نقصان ممتلكاتنا؛ وذلك حسب المنطق "الطبيعي"، الذي تُصّ عليه نظرية اقتصاديات السوق.

من الجانب الآخر، وبالنظر إلى ظاهرة الصدقات والمساعدات للآخرين من منظور تراثنا، نجد أنّ مساعدة الآخرين، دون مقابل، لا تُؤدّي إلى نقصان مواردنا.

وفي ذلك يقول (:): "ما نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ" (12). ويؤكد ذلك على وجود قانون "فوق طبيعي"، أعلى من قانون اقتصاديات السوق "الطبيعي"، أوجده الله (عز وجل) جزاءً للمتصدقين (13).

ويتم بموجب هذا القانون، تطويع قانون اقتصاديات السوق، وذلك بعدم نقصان المال بخروج الصدقة. ليس ذلك فحسب، بل إن الله (عز وجل) يضاعف مردود الصدقات (14).

• قانون الحمد

يُمَثِّلُ الحمد أحد الظواهر الخارجة عن المألوف، التي ترتبط بقانون "فوق طبيعي"، لا يرتبط بالمسببات الفيزيائية "العلمية" التي تعودنا عليها.

ولو تأملنا في الحمد، نجد أنه قد لا يتعدى كلمات نقولها، أو حتى شعورًا داخليًا بالامتنان. إلا أن ذلك له تأثير "فوق طبيعي"، بمستوى يتعدى القانون الثالث من قوانين الحركة، الذي يقضي بأن "لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه" (15).

وقبل التطرُّق إلى مظاهر "فوق طبيعية" ترتبط بالحمد، نُشير إلى نتائج دراسات حديثة لآثار الشكر والامتنان. وفي ذلك يؤكد الدكتور جون غراي -الأخصائي النفسي ومؤلف العديد من الكتب الشهيرة عن العلاقات الإنسانية والنجاح -على أهمية الشكر والامتنان في حياة الإنسان، من حيث إن الشكر يعطينا المزيد من الدعم والقوة لتحقيق المزيد من النجاح (16).

من ناحية أخرى، وفي ضوء دراسات في جامعة كاليفورنيا، يؤكد د. روبرت إيمون (17) على ما للشكر والامتنان من فوائد صحية ونفسية، حيث إن الشاكرين عادةً ما يكونون أكثر تفاؤلاً وتمتعًا بالحياة. هذا إضافة إلى ارتفاع مستوى مناعتهم ضد الأمراض.

وبالنظر إلى هذه الظاهرة من منظور تراثنا، نجد أن العرفان لكل من أسدى إلينا صنيعًا من البشر يُمَثِّلُ أهمية قصوى، لدرجة ربط شكر الناس بشكر الله (عز وجل) (18).

وفي دلالة أخرى على الأهمية القصوى للحمد، ألزم الخالق نفسه بجزل العطاء على شكر النعم، ووضع لذلك قانونًا يتم من خلاله إعطاء مزيد من الخيرات للشاكرين، حيث قال: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^ط وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (19).

بناءً على هذا القانون الكوني، الذي يتعدى مقتضيات القوانين الطبيعية، فإن مجرد قول كلمات أو الشعور بالشكر والامتنان، يُطَوِّع القوى الطبيعية من حولنا، وذلك لتنفيذ وعده (عز وجل) بوصول الخيرات والنعم إلينا.

- 1) روندا بايرن، "السر" ترجمة مكتبة جرير، 2018.
- 2) الدكتور جوزيف ميرفي، "قوة عقلك الباطن"، ترجمة مكتبة جرير، 2012.
- 3) وسام الرشدان، "قانون نيوتن الثالث"، صحيفة "موضوع"، 2021.
- 4) على سبيل المثال، يُشير الكاتب "جوزيف ميرفي" في كتابه "قوة عقلك الباطن" إلى قوى غير محدودة للعقل الباطن، الذي يحقق لنا كل ما نريد. هذا "العقل"، الذي لم يثبت علمياً موقعه من جسم الإنسان، ناهيك عن مصدر قوّته.
- 5) أخرجه البخاري ومسلم.
- 6) وصف الخالق (عز وجل) نفسه بالدهر، حيث قال في الحديث القدسي الشريف: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار». أخرجه البخاري ومسلم.
- 7) من كتاب المؤلف، "طريق التوازن"، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومكتبة جرير، الطبعة الثالثة، 2017.
- 8) روى الدكتور مصطفى محمود هذه القصة، على قناة إي آر تي التلفزيونية.
- 9) وين دلبليو. داير، "سوف تراه عندما تؤمن به"، هاربر كولينز، 2001، ترجمة مكتبة جرير، 2015.
- 10) Bruce H. Lipton, PhD., The Biology of Belief: Unleashing the Power of Consciousness, Matter & Miracles", HAY House UK Ltd, 2015.
- 11) سورة الشعراء، الآيتان: 61-62.
- 12) رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح.
- 13) وكما في قوله (عز وجل): (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)، سورة سبأ، آية: 39.
- 14) كما في قوله (عز وجل): (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، سورة البقرة، آية: 245.
- 15) وسام الرشدان، "قانون نيوتن الثالث"، صحيفة "موضوع"، 2021.
- 16) عبد الدائم الكحيل "بحث رائع: أسرار "قوة الشكر" في موقع "أسرار الإعجاز العلمي"، 2010.
- 17) روبرت إيمون، "سيكولوجية الحمد" مطابع جامعة أكسفورد، 2004.
- 18) وفي ذلك يقول (:): "لا يَشْكُرُ الله من لا يَشْكُرُ الناس" (رواه الترمذي)، وليصل بشكرنا وتقديرنا للآخرين إلى مستوى العبادة.

19 () سورة إبراهيم، آية: 7.

تقديم.....

5

الباب الأول: تحدّيات يواجهها الجيل العربي الجديد.....

11

أ- سمات خطاب مجتمعاتنا نحو الجيل الجديد.....

13

ب- قُوى جَذْب وطرْد يواجهها شبابنا.....

14

ج- بين الجيل الجديد والذي سَبَقَه.....

16

مساحات للتأمل.....

22

الباب الثاني: تجسير الفجوة بين الجيل الجديد ومجتمعه.....

23

أ- تغيير نظرنا إلى الجيل الجديد.....

25

ب- الحد من مظاهر تُتَفَرَّ الشباب من مجتمعاته.....

28

ج- فَتْح المجال أمام طُرُوحات حديثة تحد من سعة الفجوة....

29

مساحات للتأمل.....

33

الباب الثالث: مؤثّرات على ♡♡ توجُّهنا المتوازن ♡♡ كأفراد ومجتمعات

35

أ- الخلفية الثقافية

41

ب- الحالة الذهنية

42

ج- مدى الانفتاح الفكري

48

مساحات للتأمل

51

الباب الرابع: تحديات أمام فرص تقدم الدول العربية

53

أ- أوهام في طريق التقدم

59

ب- ظواهر مجتمعية وموروثات تاريخية مؤثرة

62

ج- بين "التنمية الاقتصادية" و"الاستقرار السياسي"

72

مساحات للتأمل

75

الباب الخامس: نحو "قفزة حضارية" "قريبة المنال"

77

أ- مُمكّنات متاحة لتحقيق تقدم

81

ب- خطوات على طريق التقدم

100

..... كلمة أخيرة

113

..... الملاحق

115

..... مقدمة الملاحق

117

..... ملحق (1): الكَوْن كما لا نراه

119

..... ملحق (2): تحدّيات فِكْرية حول الرحمة والعدل

125

..... ملحق (3): قُوَى "فوق طبيعية" متاحة لنا

131